

القدس ليست أورشليم

مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين



فاضل الربيعي

القدس ليست أورشليم

مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين



Al-Quds Is Not Jerusalem

A Contribution to Correcting Palestine's History

Fadel Rabi'i

First Published in July 2010
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 469 - 7

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: تموز (يوليو) ٢٠١٠

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

مقدمة

هل القدس التي يُزعم أن اسمها ورد في التوراة، هي ذاتها المدينة التي ذكرها كتاب اليهودية المقدس باسم «أورشليم»، وأن الاسمين معاً، يدلّان على مكان واحد بعينه كما تقول الرواية الإسرائيلية المعاصرة؟ **وهل القدس العربية هي ذاتها «قَدش ــ قَدَس»** التي سجلتها التوراة بهذه الصيغة؟ ولكن، هل ذكرت التوراة حقاً، بأيّ صيغة من الصيغ المفترضة، اسم «القدس» ـ بألف ولام التعريف العربية ـ؟ وهل يتطابق وصف التوراة لها مع وصف أورشليم، وبحيث يجوز لنا مطابقة المكانين وعدّهما مكاناً واحداً؟

ما أريد إثارته في هذه الأطروحة النظرية هو الآتي:

إن التوراة لم تذكر اسم فلسطين أو الفلسطينيين قط، وإنها

لم تأتِ على ذكر «القدس» بأي صورة من الصور. وكل ما يُقال عن أن المكان الوارد ذكره في التوراة باسم «قدش ـ قدس» قصدَ به المدينة العربية، أمر يتنافى مع الحقيقة التاريخية والتوصيف الجغرافي ولا صلة له بالعلم لا من قريب ولا من بعيد. كما أن التوراة لا تقول البتة، إنّ قدس التي وصلها بنو إسرائيل بعد رحلة التيه هي أورشليم؟ لقد حامت الشبهات ـ بالنسبة لي ـ حول هذه البديهية الشائعة في المؤلفات التاريخية والسياسية في العالم كله، منذ أن قمت، وطوال سنوات من العمل الشاق، بإعادة تركيب الرواية التوراتية عن التاريخ الفلسطيني وبنائها استناداً إلى النص العبري، حيث تكشفت أمامي حقائق مذهلة غيّبها المخيال الاستشراقي السقيم طوال القرنين الماضيين، وذلك عبر الترويج الزائف لأسطورة أرض الميعاد اليهودي. والمدهش، أن هذا الكشف ـ الذي أقدمه اليوم تطويراً للنظرية التي عرضتها في مؤلفي السابق **فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم**[1]ـ قد لا يكون صادماً لوجدان اليهود المتعصبين والتوراتيين والاستشراقيين وحسب؛ بل ربما يكون صادماً أيضاً، للوجدان الفلسطيني والعربي والإسلامي على حدٍّ سواء، ما دامت الفكرة الرائجة التي تقول إن اسم القدس ورد في التوراة، هي فكرة مغرية وجذابة في الثقافة الروحية، يصعب المس بها أو تعديلها لتتوافق مع التاريخ المتحقق، وذلك نظراً لارتباطها بالجانب العاطفي لا التاريخي من مسألة قدسية المدينة القديمة وقِدَمها. ويمكن للمرء أن يخمن بسهولة، مقدار

---

(١) دار الفكر، دمشق ٢٠٠٩.

الصعوبة في مراجعة هذا النوع من الصور والأفكار الأثيرة. بيد أن الحقيقة التاريخية عنِ قدم القدس و«قدسيتها»، المؤكدة بالنسبة للمسلمين والمسيحيين كافة، هي أنهما أمران مسلّم بهما ولا يستوجبان بأي شكل من الأشكال، الاستعانة بالتوراة، أو بما يزعم أنه نصوص توراتية ورد فيها ذكر القدس من أجل التأكيد على هذا الجانب؛ بل على العكس من ذلك، ربما تكون الاستعانة بالتوراة ضرورية فقط، من أجل البرهنة على أن الكتاب المقدس لليهودية يتحدث عن «قَدس» أخرى عرفها شعب بني إسرائيل، لا علاقة لها بالقدس العربية ـ بألف ولام ـ.

إن أكثر ما يجب أن يثير اهتمامنا اليوم حول هذه المسألة، هو البحث من داخل النص العبري عن الدليل الذي استخدمه التوراتيون للترويج لأسطورة تطابق القدس وأورشليم، وبالتالي دحض الأفكار والصور الاستشراقية التي سادت في علم الآثار عن هذا التطابق. ومن غير شك؛ فإن إثارة النقاش حول نوع وطبيعة التزوير الفاضح الذي تعرض له تاريخ القدس العربية على أيدي علماء الآثار من التيار التوراتي، سيكون ضرورياً للغاية من أجل تقديم مساهمة جديدة لتصحيح تاريخ فلسطين القديم برمته؛ فهذا التاريخ كان عرضة للتزوير والتلاعب بصورة مروعة، يشعر معها المرء بالحيرة والعجز حيال إمكانية تطويق النتائج التي رسخت بسببه في ذاكرات الملايين من البشر. إن المساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين القديمة، تتطلب من عموم القرّاء إمعان الفكر ملياً بالأدلة المقدمة والانفتاح عليها والتعامل معها بروح العلم لا العاطفة والأحكام المسبقة. ويمكن

للمرء، إذا كان من المشتغلين في حقل التاريخ، أن يقدم بسهولة وفي مناسبة كبرى من نوع اعتبار القدس عاصمة للثقافة العربية؛ تقريراً تاريخياً احتفالياً بالمدينة المقدسة، يكرر فيه ما هو رائج في المؤلفات والكثير منها مبني على قصص التوراة. لكن الأهم من الاحتفاء الثقافي بتاريخية المدينة المقدسة، أن يجرؤ المرء نفسه ـ على قلب الحقيقة المزيفة رأساً على عقب، وأن يعيد النقاش العلمي برمته إلى نقطة البداية: كيف، ولماذا جرت المطابقة التعسفية وما الغرض منها؟ وهذا ما أرغب في تقديمه كمساهمة في هذه المناسبة. لقد كانت فلسطين وما تزال، ضحية تلاعب ـ بالتاريخ القديم ـ يرقى إلى مستوى العبث غير الأخلاقي بالحقائق الجغرافية والتاريخية. وفي مناسبة من هذا النوع، جدير بنا أيضاً، أن نقوم ومن دون تردد بفضح العبث الاستشراقي الذي جرى على أيدي علماء آثار ومحققين وكتاب تاريخ، وطوال أكثر من مائة عام، لا بهذه الحقيقة وحدها، وإنما بنظام السرد التاريخي كذلك، للأحداث والمرويات والقصص التي روتها التوراة، وزعمَ أنها دارت فوق أرض فلسطين. وإذا كان لا بد من قولٍ يختصر فكرةَ الكتاب ويحدّدها ضمن إطار واضح؛ فإن المؤلف يرغب في التشديد على التالي: هذه «قدسنا» القديمة، وهي ليست ـ ولم تكن تدعى ـ أورشليم.

فاضل الربيعي

دمشق ٢٠٠٩

الفصل الأول

نقد أسطورة التماثل بين أسماء الأماكن في التوراة وجغرافية فلسطين

لا تقوم الرواية الإسرائيلية المعاصرة، والقائلة أن فلسطين هي «أرض الميعاد اليهودي» وأن «مملكة إسرائيل القديمة التي أقام فيها شعب إسرائيل» تقع في فلسطين التاريخية، إلا على أساسٍ واهٍ من المماثلةِ الشكليةِ والتعسّفية، والباطلة كذلك، بين الأرض التي وصفتها التوراة في النص العبري، وأرض فلسطين التاريخية. لقد تأسست، طبقاً لهذا الزعم غير التاريخي، فكرة زائفة أخرى موازية، تطابق بين القدس العربية ـ الإسلامية، وبين أورشليم الوارد ذكرها في التوراة. وبذلك، تكون الرواية الإسرائيلية المعاصرة عن التماثل في أسماء الأماكن، قد تأسست في الأصل، على أرضيةِ مطابقةِ ماكرةِ ومخادعةِ لا مثيل لها، بين «أورشليم» و«القدس»، حين اعتبرتهما المكان نفسه الذي وصفته التوراة. إن نقد الرواية الإسرائيلية بالأدوات ذاتها التي استخدمها المخيال الغربي الاستشراقي، هو

السبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله، البرهنة على بطلان هذه الرواية من أساسها. لقد بينت تحقيقاتي والعمل الدراسي الشاق الذي قمت به في مؤلفي (**فلسطين المتخيلة** ـ مصدر مذكور) أن فلسطين لم تعرف في أي وقت من تاريخها القديم قط، الأرض التي وصفتها التوراة، وأن القدس العربية لم تكن تدعى في أي وقت من الأوقات بـ«أورشليم». كما أن التوراة لم تأتِ على ذكر الفلسطينيين أو فلسطين. ولذلك؛ فإن المطابقة التي روج لها المخيال الاستشراقي، استناداً إلى قراءة مغلوطة للنص التوراتي، هي التي أدّت إلى شيوع هذه الأفكار والتصوّرات الخاطئة. وما سأقوم به اليوم ليس تكراراً لما قمت به في مؤلفي السابق؛ بل هو محاولة ثانية تتواصل مع النتائج التي خرجت بها. ولذا، ومنعاً لأيّ التباس قد ينجم عن هذه الفكرة المثيرة، سوف أعيد التأكيد على الأسس التي تشكل جوهر الأطروحة الجديدة: أن القدس الموصوفة في التوراة (وطبقاً للنص العبري) لا علاقة لها بالقدس العربية على وجه الإطلاق. وبهذا المعنى وحده، فالقدس ليست هي أورشليم كما يزعم في الدراسات الكتابية المعاصرة (من الكتاب المقدس). لقد كان اسمها التاريخي الذي عرفه العرب في الجاهلية ثم مع الإسلام، يتداخل مع اسم «بيت المقدس» فيدل أحدهما على الآخر. وفضلاً عن هذا؛ فإن التوراة، كما سوف نبيّن بالأدلة القاطعة،لا تقول بأي صيغة من الصيغ المحتملة، أن القدس هي أورشليم.

وعلى العكس من هذا الزعم الضعيف والمتهافت الذي روّج له المخيال الغربي الاستشراقي؛ فإن النص التوراتي يميز بدقة متناهية بين مكانين منفصلين لا صلة بينهما، يدعى أحدهما قَدَش ـ قَدَس (بفتح الحرفين الأول والثاني من الاسم ـ والسين والشين في

العبرية حرف واحد عند النطق) فيما يدعى الآخر أورشليم، وهما مكانان لا رابط بينهما على مستوى الجغرافيا أو على مستوى الثقافة الدينية، فالأول وكما يتضح من وصف التوراة، جبل شامخ تم تقديسه (تطهيره) أو تحريمه فسمّي (قَدَش ـ قدَس)[٢]. أما الاسم الآخر (أورشليم) فاسم لمدينة من المدن، يتكرر حضورها في نصوص مختلفة من التوراة، من دون أي رابط جغرافي مع الجبل. بكلام آخر؛ فإن التوراة تطلق على مكان بعينه اسم «أورشليم» ولا تقول عنه، أبداً، ولا بأي شكل من الأشكال، أن المقصود منه القدس (أو قَدَش). وهذا يعني أن شعب بني إسرائيل القديم، وهو من الشعوب والقبائل العربية البائدة، وطبقاً للرواية التوراتية، عرف مدينة باسم أورشليم، كما عرف مكاناً آخر باسم قَدَش ـ قدس. وإلى هذا كله، فسوف يكون أمراً مدهشاً، عندما تخبرنا التوراة عن وجود ثلاثة أماكن، كلّ منها لا يشبه الآخر، عرفها شعب بني إسرائيل باسم «قَدَش ـ قَدَس»، وليس مكاناً واحداً؟

والمثير أن كل مكان (موضع) من هذه الأماكن الثلاثة، هو جبل بعينه له جغرافيته الخاصة به. وبالطبع لا توجد في جغرافية فلسطين التاريخية مثل هذه الأماكن. إن الفضاء الجغرافي الوحيد الذي ضمّ في الماضي البعيد ثلاثة أماكن لها الاسم نفسه، هو الأرض الممتدة من وادي الرمة حتى جنوب مدينة تعز اليمنية. وذلك ما يفسّر لنا مغزى وجود أسماء مدن يمنية وأسماء قبائل وشعوب عربية بائدة في قصص التوراة، مثل عدن، وحضرموت، ووادي الرمة. ولعل

---

(٢) ومن هذا الجذر الثلاثي الذي استخدمه العرب القدماء في طفولتهم البعيدة، جاء اسم العاصمة الصومالية (مقديشو). والميم في أول الاسم كما سوف نبرهن، أداة تعريف منقرضة استخدمت في اللهجات اليمنية القديمة.

وصف التوراة الدقيق لجبل قَدَش ـ قَدَس من النوع الذي لا يقبل أي تأويل مغاير، لأنه وصف واضح لجبل وليس لمدينة، وهو يشير في آن واحد إلى جبل بعينه وإلى موضعين آخرين، لا يدعى أي منها «أورشليم». وهذا ما لا ينطبق على وصف القدس العربية لا من قريب ولا من بعيد. ولأن النص يتحدث عن جبل شامخ وليس عن مدينة؛ فإن من غير المنطقي مطابقة القدس العربية التاريخية بقَدَش ـ قَدَس الوارد ذكرها في التوراة. كما أن القدس العربية ليست جبلاً ولا تقع في جبل، وهي بكل يقين ليست فوق جبل، وفضلاً عن هذا كله، فلا وجود في جوارها القريب أو البعيد، لجبل بهذا الاسم يمكن أن ينسب إليها وتعرف به.

وللتذكير؛ فإن المتطرفين وغلاة اليهود الغربيين، يصرّون على وصف التوراة هذا، وهم يقولون إنها فوق جبل (ولذلك ظهرت جماعة أمناء جبل الهيكل التي تقول أن هيكل الرب الذي بناه سليمان هو في القدس العربية أي فوق جبل، هذا برغم أن القدس العربية تقع فوق هضبتين مرتفعتين). والمدهش أكثر، أن النص التوراتي يتحدث عن سقوط أورشليم بعد أن هاجمها الملك داود من جبل يدعى جبل صهيون، وأن داود أطلق اسمه على الجبل ـ الحصن الذي استولى عليه، فصار اسمه «مدينة داود». وبالطبع لا يوجد في طول فلسطين وعرضها جبل يدعى جبل صهيون. والجغرافيون العرب ومعهم جغرافيو اليونان الذين وصفوا بلاد الشام في حقب وفترات مختلفة من التاريخ، لم يذكروا قط اسم جبل في جنوب سورية يدعى جبل صهيون، كما لم يذكروا أي شيء عن بلاد تدعى «اليهودية»، قامت في أي وقت فوق أرض فلسطين. ومن المؤكد أن اسم جبل صهيون في الذاكرات الوطنية العربية، اسم يثير الفضول والريبة والحيرة والسخط في آن واحد، لأنه يرتبط باسم «الحركة

الصهيونية». لكن، ماذا لو أننا قلبنا هذا المزاج السيئ رأساً على عقب، وقلبنا معه التاريخ الملفق والجغرافيا المزورة، وبرهنّا أن جبل صهيون جبل عربي شامخ من جبال اليمن، وأن الشعر الجاهلي تغنى به وذكره بالارتباط مع منطقة نجران وليس بفلسطين؟

ولذلك، سنقوم بإعادة بناء الرواية التوراتية عن سقوط أورشليم، تمهيداً لتقديم البرهان على الأمور المترابطة التالية:

أولاً: إن قدس ـ قدَش الوارد ذكرها في التوراة حسب الزعم الاستشراقي، ليست القدس العربية التي نعرفها، وهي لا تدعى أورشليم إطلاقاً.

ثانياً: والقدس المدّعى أن التوراة سجلت اسمها، لم تذكر قط إلا في صورة «جبل قَدَش» وقصد به ثلاثة مواضع (أماكن ـ جبال) وليس جبلاً أو مكاناً واحداً.

ثالثاً: كما أن القدس ليست فوق جبل ولا قرب جبل، بينما تصفها التوراة كجبل؟

رابعاً: إن جبل صهيون الذي يؤدي إلى أورشليم لا وجود له في فلسطين. ومن غير المنطقي تخيّل اختفاء جبل من الجغرافيا، أو زوال اسمه أو تحول طريقة نطقه، بينما يزعم التوراتيون أن كل الأسماء الواردة في التوراة صمدت على مر الزمن، وأنها لا تزال موجودة في فلسطين منذ ألفي عام، برغم أن الكثير منها مجرد آبار قديمة أو ينابيع وعيون ماء أو قرى يسهل زوالها ونسيان أسمائها؟

خامساً: إن التوراة لم تذكر اسم فلسطين قط، كما لم تشر أو

تلمّح مجرد تلميح إلى اسم الفلسطينيين. وكل ما يزعم ويقال عن وجود أي ذكر لهما في كتاب اليهودية المقدس، إنما يدخل في باب الخيال الاستشراقي الاستعماري الذي تم توظيفه بدهاء من أجل تبرير عملية «تهويد القدس».

وعلى هذا الطريق، سوف نقوم ـ في سياق تحليل هذا الترابط ومغزاه ـ بإعادة بناء الرواية الجغرافية التوراتية (واستطراداً إعادة بناء الرواية التاريخية) بهدف تقديم مساهمة جديدة في تصحيح تاريخ فلسطين القديم، وتهذيبه وتخليصه من الشوائب التوراتية والاستشراقية. لقد بات هذا التاريخ موضوعاً ملتبساً، مع تصاعد الصراع واحتدامه ضد محاولات تهويد المدينة، وسيغدو شائكاً أكثر ويصعب فهمه بصورة صحيحة من دون عمل علمي، يبرهن فيه المسلمون جميعاً، أن ما ورد في التوراة لا يتطابق مع وصف القدس العربية. وللتدليل على نوع ومقدار الصعوبة في فهم التاريخ القديم لفلسطين، واستحالة إيجاد أرضية مناسبة يتحقق فيها الانسجام المطلوب بين أحداث التاريخ والتوصيفات الجغرافية، فسوف أعطي المثال التالي: إذا ما قبلنا ـ لأغراض السجال العلمي وحسب ـ المزاعم الرائجة والقائلة أن التاريخ المروي في التوراة هو تاريخ فلسطين القديمة، فكيف يجوز لنا في هذه الحالة، إغفال حقيقة أن الجغرافيا الموصوفة تتحدث عن عدن وحضرموت وصنعاء (أوزال ـ الاسم القديم لصنعاء وقد ذكرته التوراة ـ سفر التكوين بالصيغة ذاتها)؟ وما علاقة الأحداث التي دارت هناك بتاريخ فلسطين القديم؟ وفي الواقع، سيكون أمراً عسيراً على الفهم، وغير مقبول علمياً، تجاهل هذا التناقض.

بيد أن ما يبدو تناقضاً في النص التوراتي، ليس تناقضاً مؤكداً.

فالتوراة تقدم وصفاً دقيقاً بالارتباط مع أحداث بعينها، ليس فيها أي قدر من التباين بمقدار ما فيها من الالتباس الناجم عن قراءة استشراقية، طابقت بشكل تعسفي بين تاريخ فلسطين القديم وأحداث التوراة. وبكلام موازٍ، فالتوراة ـ وبالطريقة التي جرى فيها تأويلها ـ هي نتاج مخيّلة أوروبية استعمارية. ولذلك، يجب أن نعود إلى النص العبري لأجل تفكيكه وإعادة بناء روايته. ولهذا الغرض، سنعيد تحليل وتركيب قصة سقوط أورشليم على يد داود الملك.

رواية التوراة عن سقوط أورشليم وجبل صهيون

نعلم من روايات التوراة المتفرقة، أن أورشليم سقطت في يد داود الملك بعد أن استولى على مدينة جبلية بالقرب منها وتقع في عزلة جبلية حصينة تدعى بيت بوس. لقد مهد سقوط بيت بوس، بحسب رواية سِفر صموئيل النبي، وهو المعروف عند الإخباريين العرب بالسموأل اليهودي؛ الطريق أمام الملك داود لطرد سكانها اليبوسيين والاستيلاء عليها. ولذا، فالمدينة التي سقطت في قبضة داود بعد بيت بوس هي التي تسمى في نص صموئيل «مدينة أورشليم». وفي الواقع لا توجد مدينة فلسطينية قديمة قرب القدس العربية تدعى بيت بوس، يمكن عند الاستيلاء عليها وطرد سكانها، الاستيلاء على القدس؟ والمثير للاهتمام في نطاق هذه الرواية، أن النص الذي كتبه صموئيل عن أحداث سقوط أورشليم في قبضة داود الملك، يشير إلى أن المدينة هي في الطريق إلى مدينة (ربّة) عاصمة العمونيين. والملاحظة الأولى التي تستوقف كل قارئ للنصوص العبرية في هذا النطاق المحدود من السرد التاريخي، أنها تستعمل الفعل الماضي الناقص (هيء) بمعنى (كان) في الإشارة إلى

بيت بوس؛ إذ تقول في أكثر من موضع (وبيت بوس ـ هيء ـ يروشلم) أي (بيت بوس وكانت أورشليم). وهذا يعني أن بيت بوس كانت في عصر داود مدينة حصينة تؤدي إلى أورشليم، بمعنى (دار السلام). لكن داود بعد انتصاره قرر أن يطلق اسمه فقط على حصن المدينة الذي كان يدعى صهيون، ليصبح «مدينة داود». وصموئيل يقول عن هذه المعركة ما يلي (النص العبري: ٢٢:٤: ٥):

و ـ ي ـ ل ـ ك ـ هـا ـ م ـ ل ـ ك ـ ءن
ـ ش ـ ي ـ و ـ ي ـ ر ـ وش ـ ل ـ م ـ
ءل ـ ب ـ و ـ سـي ـ وي ـ وش ـ ب ـ
ها ـ ء ـ رص ـ دود ـ م ـ ل ـ ك ـ ءت ـ
م ـ ص ـ د ـ ه ـ ص ـ ي ـ و ـ ن ـ ه
ـ يء ـ ع ـ ي ـ ر ـ دود)

يقول النص حرفياً ما يأتي:

(واستولى الملك ورجاله على أورشليم اليبوسية وطرد سكانها من الأرض، وأخذ حصن صيّون ـ صهيون فأصبح اسمه مضارب داود)

وسوف يفهم كل قارئ لهذا النص، وبسهولة، أن داود استولى على مدينة تدعى بيت بوس، لكنها كانت «أورشليم» أي مدينة مسالمين آمنين متدينين. أو كما يقال في الموارد العربية: دار سلام. وهذا النص ينفي نفياً قاطعاً أن تكون أورشليم هي القدس أو هي قَدَش ـ قَدَس، كما أنه يؤكد وجودها قرب جبل صهيون (صيون والهاء الوسطية حرف صوتي كما في كلام أهل اليمن: يريق الماء ـ يهريق الماء). وبالطبع فالقدس العربية لا تقع قرب جبل صهيون

ـ صيون، ولم تكن تدعى بيت بوس أو أورشليم.

فأين وقعت المعركة؟ هل وقعت في فلسطين أم في مكان آخر؟ ومن أين جاء المخيال الاستشراقي بفكرة وجود تطابق وتماثل بين اسمي المدينتين؟ في الواقع لا يوجد مكان، أو موضع أو جبل يدعى جبل صهيون في أي بقعة من العالم القديم، سوى الجبل المعروف عند العرب باسم جبل صهيون، وهو حصن منيع بالفعل، يصل سلسلة جبال السرّ بنجران في سَرْو حِمْير إلى الشرق من صنعاء. واليمنيون يقولون في المأثور الشعبي حتى اليوم (كل بوسي يهودي وكل يهودي بوسي). وذلك في إشارة إلى بيت بوس اليمنية التي كان سكانها على دين اليهودية، وهي مكان جبلي حصين، وصفها الهمداني وصفاً دقيقاً ومسهباً في كتابه **صفة جزيرة العرب** وتماماً كما في النص التوراتي. إليكم وصف الهمداني لبيت بوس (**صفة جزيرة العرب**: ١٥٤ ـ ١٥٦):

ثم الجوف وهو منفهق من الأرض بين جبلين، فيه أنف وأوبن وما أقبل من (مياه) من عدّ ـ ورد، وهو وادٍ يصب مع سامك ودبرة، إلى الحقلين والسهلين وما أقبل من أشراف نقيل السود، فبيت بوس وجبل نقم وما بينهما من حقل صنعاء.

ويفهم من هذا النص، أن بيت بوس اليمنية مكان جبلي في منطقة الجوف على الطريق المؤدي إلى صنعاء. وهذا الطريق يفضي إلى منطقة نجران أيضاً. علماً أن كل الأسماء الواردة في نص الهمداني، وكما برهنا في مؤلفنا **فلسطين المتخيلة** ترد في نصوص التوراة (حرفياً، مثل وادي دبرة وأنف وأوبن ونقم وصنعاء التي

تسجل التوراة اسمها القديم أوزال وبنفس التسلسل). إن هذا التطابق المذهل بين النصوص التي سجلها الهمداني لجغرافية اليمن، ونصوص التوراة بلغتها الأصلية، يقطع بحقيقة أن التوراة تروي أحداثاً لا علاقة لها بالتاريخ الفلسطيني، كما تروي وتصف أماكن لا صلة بينها وبين جغرافية فلسطين. لقد سبق لي أن بينت وبرهنت في مؤلفي السابق، أن التوراة كتاب إخباري ـ ديني من كتب يهود اليمن، لا صلة له بتاريخ وجغرافية فلسطين. وأستطيع اليوم أن أؤكد بالدليل القاطع، أن التوراة لم تأت على ذكر فلسطين أو الفلسطينيين أو مدينة القدس، وأن كل ما يزعم عن ذلك، يدخل في نطاق الدور الذي لعبه المخيال الاستشراقي الاستعماري في الترويج لأسطورة أرض الميعاد اليهودي. أما جبل صهيون الذي يؤدي إلى نجران من صنعاء، فيكفي أن نورد الواقعة التاريخية التالية التي توضح لنا أين يقع، وكيف ارتبطت به أحداث موثقة يعرفها تاريخ العرب القديم:

عندما صعد الملك اليمني اليهودي يوسف بن زرعة بن حمير الأصغر، المعروف عند المؤرخين العرب باسم (ذي نواس الحميري) في العام ٥٢٤م إلى عرش اليمن، إثر مكيدة (انقلاب قصر) انتزع بواسطتها السلطة من أيدي الأسرة السبئية، أعلن على الفور عن عودة اليهودية إلى اليمن كله ديناً رسمياً داعياً اليمنيين جميعاً للعودة إلى دين آبائهم وأجدادهم. وهذه الواقعة يتوافق عليها كل المؤرخين العرب الكلاسيكيين. إثر ذلك، قرر الملك اليمني اليهودي الزحف على نجران التي كانت المسيحية الوليدة فيها آنئذٍ، تتطور بسرعة مذهلة، حيث تنتشر وتقام على أرضها الكنائس الكبرى. ويبدو أن لانتشار المسيحية الشرقية على المذهبين النسطوري والمونوفيزي في نجران، صلة حميمة بتصاعد المشاعر المعادية لها في

اليمن. كما أن لهذا الانتشار صلة موازية بيقظة مشاعر اليمنيين للعودة إلى اليهودية. وبذلك نشأ في هذا الوقت، وقبل ظهور الإسلام بأكثر من نصف قرن على الأقل، وضع ديني وسياسي معقد ساهم في تفاقم التوتر الديني بين العاصمتين اليمنية والنجرانية. وفي هذا الوقت، وحين كان الملك اليمني ـ المتهوّد ـ يستعد للزحف نحو العاصمة المسيحية في الجنوب الغربي من جزيرة العرب، كان الأعشى الهمداني، اليمني (النصراني المتعاطف مع أساقفة نجران) يسافر على عجل، ويلتقي أساقفتها من بني كعب من بلحارث، محذراً من حربٍ يُعدّ لها يهود اليمن. وفي هذا اللقاء قال الأعشى قصيدته الشهيرة التي حذر فيها عبد المسيح بن الديان أسقف نجران العظيم[٣]، وشقيقه ومساعده وراعي كنيسته يزيد قائلاً:

أيا سيّدَيْ نجرانَ لا أوصيّكما بنجرانَ خيراً فيما نابها واعتراكما
فإنْ تفعلا خيراً وترتديا به فإنكما أهل لذاك كلاكما
وإنْ تكفيا نجران أمرَ عظيمةٍ فقبلكما ما سادها أبواكما
وإنْ أجلبت صهيون يوماً عليكما فإن رحى الحرب الدكوك رحاكما

وفي نطاق هذه الحرب، وقع الحادث التاريخي الذي سجله القرآن الكريم في (آية الأخدود) من سورة البروج. قال تعالى: **قتلَ أصحاب الأخدود. النارِ ذات الوقود. إذْ هم عليها قعود**. وهي الآية التي سجلت لحظة الاضطهاد اليهودي لنصارى نجران، حيث

---

(٣) ورد في كتاب **الإكليل** للهمداني عن نسب الديان (دايان) ما يلي: (والغوث أولد دايان). ويعلق محقق الهمداني على النسب بقوله: وتوجد (في مخلاف حضور مقاطعة يقال لها مخلاف دايان، ودايان أيضاً في منطقة حراز ـ **الإكليل**: ٢: ٢٥).

رميَ ما يزيد على ١٦ ألف نصراني في أخدود من نار، فكانت محرقة عظيمة لم يعرفها التاريخ من قبل. لقد اهتز وجدان العرب في الجزيرة والبادية، وهم يتلقون أنباء الاضطهاد الذي تعرض له نصارى نجران، ورأوا فيه نذر حرب دينية مخيفة. ولذلك؛ فإن رواة الأخبار القدامى ممن رووا القصة ـ والتي سجلتها وثائق الكنيسة بدقة ـ كانوا يعرفون جغرافية الحدث التاريخي، ويعرفون جيداً جبل صهيون الذي هبط منه جنود الملك اليهودي ذي نواس الحميري، ليتجهوا منه مباشرة نحو نجران. وبالطبع فمن غير المنطقي الافتراض أن جبل صهيون كان في هذا الوقت من التاريخ ضمن جغرافية فلسطين، وأنها هي التي هاجمت نجران وأحرقت النصارى، فالتاريخ لا يعرف واقعة من هذا النوع، والأدق والأقرب إلى الحقيقة التاريخية والمنطق، أن اليمن اليهودية هي التي هاجمت نجران. وهذا نزاع قديم سجلته التوراة في مواضع كثيرة. ونجران كما برهنا في مؤلفنا السابق، كانت تدعى (ربة) تماماً كما في التوراة، والعرب القدماء كما نعلم،كانوا يسمون نجران (ربة نجران) ويتحدثون عن كعبتها المسماة كعبة نجران. وحتى اليوم لا تزال هناك عائلات سورية من أهل الشام تحمل اسم صهيون نسبة إلى الجبل ـ في تأكيد صريح لأصولهم العربية اليمنية القديمة ـ.

بيت بوس وأورشليم والقدس

إن نص صموئيل وسائر النصوص التي تحدثت عن أورشليم، تصف المدينة وجغرافيتها الجبلية بدقة، حيث سلسلة الوديان والجبال المحيطة والمرتبطة بها. وبالطبع، ليس لدى التوراتيين أي دليل على وجود **بيت بوس فلسطينية محاطة بجبال ووديان**، أو أنها تؤدي إلى حصن جبلي منيع يدعى صهيون.

هاكم وصف الهمداني للمكان (**صفة جزيرة العرب**):

بيت بوس يُنسب إلى القيل اليمني ذي بوس (ذي بواس) بن شراحيل. حصن منيع ووادٍ فيه بعض الفواكه ويقع إلى الغرب الجنوبي من صنعاء بمسافة ساعتين.

لدينا في هذا النص ما يؤكد بشكل قاطع، وجود مكان **جبلي بالوصف** ذاته الوارد في التوراة **ويدعى بيت بوس**، وهو يرتبط بسلسلة جبلية تؤدي بدورها إلى جبل صهيون الوارد ذكره في شعر الأعشى، حيث يمكن للسائر هناك أن يهبط نحو نجران. والمثير للاهتمام أن بيت بوس هذه، وبالوصف الوارد عند الهمداني، هي مدينة آمنة (حصينة) أي أنها «أورشليم» بمعنى المدينة التي تعيش آمنة، متنعمة بسلام من خطر الأعداء، بفضل وجودها في مكان جبلي وعر وقاسٍ يصعب اقتحامه. ولنلاحظ أن كلاً من نص الهمداني ونص التوراة، يؤكد أن **بيت بوس حصن منيع**. لقد زعم التوراتيون وهم يفشلون في العثور على بيت بوس هذه، أنها ذاتها «يابوس» القرية الصغيرة في ضواحي دمشق. وهذا زعم باطل ولا أساس له، لأن القرية لا تؤدي إلى القدس العربية ولا تتصل بسلسلة جبلية تفضي إلى جبل صهيون.

مقاربة

نص التوراة	نص الهمداني
واستولى الملك ورجاله على أرض اليبوسيين وأخذ الحصن	بيت بوس حصن منيع ووادٍ

وبالطبع، فلا وجود لمكان أو قرية أو مدينة أو موضع جبلي، يدعى «يبت بوس» في فلسطين التاريخية قرب القدس، كما لا يوجد حصن منيع يؤدي إليه ويدعى حصن صهيون. فهل من العدل الافتراض أن هذه الأماكن الجبلية زالت عن الوجود، بينما يزعم الإسرائيليون اليوم، أن أسماء القرى الوارد ذكرها في التوراة لا تزال موجودة هناك منذ أكثر من ألفي عام؟ فأين حدث الخطأ التاريخي المأسوي، ولماذا حدث؟ وكيف أمكن تمرير الخدعة القائلة أن التوراة سمت القدس أورشليم، فيما لا وجود لأي نص يؤيد هذا الزعم؟

من القدس إلى النقب

كما ورد في نص سفر يشوع (١٤:٥: ١٥: ٦) النص التالي الذي يحدد موقع جبل قدَش ـ قدس على نحو لا يقبل التأويل:

(و ـ يهي ـ ها ـ جبول ـ ل ـ مطه ـ بني ـ يهوه ـ ل ـ مشفحتم ـ ها ـ جبول ـ ء ـ دم ـ صن ـ جنبه ـ مك ـ قصه ـ تيمن ـ وي ـ هي ـ ل ـ هم ـ ءل ـ جبول ـ نجب ـ م ـ قصه ـ يم ـ ملح ـ م ـ لشن ـ ها ـ فنه ـ جنبه ـ ويص ـ ء ـ ءل ـ م ـ جنب ـ ل ـ معله ـ عقربيم ـ وعبر ـ صنه ـ م جنب ـ ل ـ قدش ـ برنع ـ وعبر ـ حصرون ـ ويعله ـ ء ـ درا)

والترجمة الأمينة للنص تقول ما يلي:

(وكانت المرتفعات لسبط يهوذه ولعشائرهم،

قابل أدم من بادية ضين، وجنبيّ، ومن أقصاها تيمن، وكان لهم القابل من نجب من أقصى يام الملح ومن لسن مواجهاً الجنوب، وتخرج إلى جنب على المعلاة وعقربيم، فتجتاز صنه وتصعد من جنب إلى قدَش، وعبر وحضر فتصعد أدره).

وهذا الوصف الذي سجله النبي يشوع لموضع يدعى **قَدَش ـ قدَس**، يتطابق كلياً مع وصف الهمداني للمكان نفسه والأسماء نفسها، **فقَدَس** عنده **تتصل بسراة جبلية وعرة محاطة بمجموعة من الوديان العميقة** (علماً أن يشوع يصف في مكان آخر من السفر قدساً أخرى ويسميها قدش برنيع ـ برنع). وكما نلاحظ؛ فإن هذا الجبل المبارك يتصل بسراة جبلية تدعى نجب (ها ـ نجب) وبسلسلة من الوديان منها وادي حضر ووادي وجبل ءدره وجبل يام، قرب مصب من مصبات **وادي الملح**. وفي هذا المكان أقام سبط يهوذه أكبر أسباط بني إسرائيل. لذلك، وإذا ما وضعنا هذا النص أمامنا، ثم قمنا بتأمل النص التالي الذي يصف عمليات ترميم وبناء أسوار أورشليم على يد نحميا، فسوف نكتشف أن التوراة تتحدث بالفعل عن مكانين منفصلين، أحدهما يدعى قدش ـ قَدس، والثاني يتحدث عن أورشليم. هاكم وصف أورشليم كما سجله نحميا (٢: ١: ١٠ من النص العبري):

وء ـ مر ـ ء ـ لهم ـ ءت ـ رئيم ـ ها ـ رعا ـ ءشر ـ ء ـ نحنو ـ به ـ ءشر ـ يروشلم ـ ها ـ حرية ـ وشعر ـ يه ـ نصتو ـ ب ـ ء ـ يش ـ لكو ـ ونبنه ـ ءت ـ ها ـ حومت ـ يروشلم ـ وءل ـ نهيه ـ عود ـ حرفه)

والترجمة الأمينة لهذا النص تقول ما يلي:

(فقلت لهم: ها أنتم ترون **الرعا** الذي نحن فيه، حيث **أورشليم** و- **وادي - الحزْية** و- **جبل - شعر**. فلنقم ببناء أسوار أورشليم ابتداءً منه، فتمتد الأسوار إلى - وادي - **نهيه**، ثم - وادي - **عود**، فإلى - وادي - **حرف**)

ومن الواضح أن نحميا، وهو يجمع القبائل اليهودية اليمنية ويحثها على الشروع في البناء (بعد عودتها من الأسر بناء على مرسوم الملك الفارسي قورش عام ٥٣٩ ق.م) قام ببناء أسوار المدينة المقدسة **في مكان لا علاقة له بجبل قدش - قدس؛ فها هنا مدن وجبال ووديان أخرى، وفضاء جغرافي مختلف كلياً، حيث جبل شعر** (شعر بالعبرية تنصرف إلى اسم الجبل شعر وليس إلى معنى «باب» كما في الطبعة العربية) **ووادي نهي - نهيه، ومخلاف العود ووادي حرف**. لقد شاهد نحميا كيف أن سور المدينة المخربة في جبل الرعا قد احترق تماماً، ولذا طالب القبائل وهو يدعوها إلى العمل، أن تدرك معنى وحدود الخراب الذي طال المدينة المقدسة. فهل من المنطقي الافتراض أن نحميا لم يكن يعرف أورشليم، أو أنه لم يكن يميز بين قدس وأورشليم، بحيث قام بإعادة بناء أسوار مدينة أخرى؟ وفضلاً عن ذلك، أن نحميا - نحميه لا يشير أبداً إلى أن أورشليم المحترقة هذه هي نفسها قدش - قدس؟ وكما رأينا من نص يشوع؛ فإن قدش - قدس ترتبط بسلسلة جبال ها - نجب وقرب جبل يام، وليست قرب جبل الرعا ووادي نهيه ووادي حرف و«مخلاف» العود؟ هذا التناقض في وصف المكانين، ليس تناقضاً عابراً وعرضياً؛ بل هو في صميم

الاختلاف الذي يفصل جغرافياً بين مكانين مختلفين. وكنت قد بيّنت بالتفصيل، كيف أن الهمداني وصف بدقة مذهلة كل المواضع والأماكن التي تتحدث عنها النصوص التوراتية، فجبل قدش ـ قدس المبارك جبل شامخ من جبال اليمن، يقع على مبعدة ٨٠ كيلومتراً إلى الجنوب من مدينة تعز اليوم. وقد ورد اسمه في قوائم الكرنك المصرية التي تزين جدران المعبد المصري القديم، باعتباره مكاناً استولى عليه المصريون في حملة تحتمس الثالث والتي بلغت، بإجماع علماء الآثار وكتاب التاريخ وعلماء المصريات، عمق الجزيرة العربية وجنوبها الغربي. وفي هذه القوائم سنرى أن جبل قدس يقع قرب وادي حضر، بالضبط وكما في وصف التوراة والهمداني. وهذا تأكيد آخر على تطابق وصف المصريين مع وصف التوراة. والغريب أن قوائم الكرنك لا تشير أبداً إلى أورشليم. وهنا مقتطف من قائمة الكرنك (وقارن بين نصوص الهمداني والتوراة وقائمة الكرنك).

قائمة الكرنك (نموذج دراسي)	
الاسم في قائمة الكرنك ـ مجدو	الاسم في صيغته العربية
١: قدَش	قَدَس
٢: مكت ـ مخت	المخا
٣: خطي	خطي
٤: عنسو	عنس

٥:حصر	حضر
٦: صور	صور
٧: روس	روس

إن الأماكن والمواضع الوارد ذكرها في القائمة المصرية، هي ذاتها المواضع والأماكن التي وصفها الهمداني في **صفة جزيرة العرب** باعتبارها أماكن ومواضع يمنية قديمة، فالمخا (مخت أو مكت) هو ساحل اليمن العظيم، المعروف عند الجغرافيين اليونانيين بساحل المخا ـ مكت، وحضر ـ حصر في العبرية من أشهر وديانه، كما أن صور اليمن (وليس صور لبنان) من الوديان العظيمة التي وصلها المصريون في زحفهم، بعد أن استولوا على منطقة عنس (عنسو عند المصريين والتي لا تزال قائمة اليوم بعشائرها وقراها). والأمر ذاته ينطبق على كل الأسماء الوارد ذكرها في نصوص التوراة الأخرى. يتبقى أن نلاحظ أن قدش ـ قدس برنيع، الوارد ذكرها في نص يشوع، تقع في سلسلة جبلية تدعى ها ـ نجب. وقد ترجمت الكلمة اعتباطاً وتزويراً للجغرافيا والتاريخ إلى (النقب) وهذا تلاعب فاضح، لأن علينا ـ في هذه الحالة ـ أن نقلب كل حرف جيم (بالنطق المصري) إلى قاف. ومع ذلك؛ وإذا ما سلمنا بهذه الترجمة المزيفة لأغراض السجال، ففي هذه الحالة تصبح قدس التوراة قرب النقب، وهذا أمر غير قابل للتصديق جغرافياً، لأن النقب الفلسطيني مكان صحراوي لا يتصل بالقدس العربية، بينما المقصود من ها ـ نجب (النجب) سلسلة الجبال الممتدة من تهامة ونجران حتى منطقة الجوف، حيث يقع جبل يام ووادي الملح، تماماً كما في نص يشوع.

يقول الهمداني ما يلي (**صفة** ١٣٦ ـ ١٣٧)

ثم وادي بيض، ومآتيه من سراة جنب وجميع ما بين عدن ووادي تخلة من أرض شرعب التي تنتهي إلى البحر. والثاني من أودية السكاسك، ووادي اديم وجبال ذات السريح ــ المحقق: وهي الجبال التي تسمى اليوم ذات الصريح وهي من المعافر ثم في قدَس

وإذا ما قمنا بوضع النصين (نص يشوع ونص الهمداني) في إطار مقاربة جغرافية، تتضمن التسلسل الدقيق للمواضع والأماكن التي تؤدي إلى جبل قدش عند يشوع، وقدَس عند الهمداني، فسوف نحصل على التماثل المدهش التالي ــ وللاختصار فسنكتفي ببعض الأمثلة ــ:

يشوع: في وصف قدش	الهمداني: في وصف قدس
ــ ها ــ نجب (النجب)	ــ النجب
ــ أدِم	ــ وادي أديم
ــ حصر	ــ وادي حضر
ــ قدش	ــ جبل قَدَس

يمكن القول وبكل يقين، أن لا وجود في هذه الجغرافيا (لنقب) صحراوي يؤدي إلى القدس العربية في فلسطين؛ بل توجد سلسلة جبال ها ــ نجب (النجب). لقد افترض الاستشراقيون وبعض الكتاب العرب على خطاهم، أن حرف الجيم العبري الذي يلفظ جيماً مصرية، يسمح بتخيل ها ــ نجب في صورة «النقب». وهذا أمر غير مقبول عند تحليل المضمون الجغرافي الدقيق للوصف. وإلى هذا كله، فقدس هنا لا تدعى أورشليم أبداً؟ والآن هاكم مقاربة

أخرى بين نصين من التوراة. النص الأول من سفر يشوع (١٥: ٧: ٢٨) يقول نص السفر عن أورشليم ما يلي:

(ء ــ بن ــ هنوم ــ كتف ــ ها ــ يبوس ــ م ــ جنب ــ هي ــ ء ــ يرو ــ شليم)

والترجمة الصحيحة تقول ما يلي:

(أوبن، وهنوم، فإلى كتاف ويبوس من جنب، ثم تكون أورشليم)

ومن المؤكد أن أورشليم في هذا النص، تظهر قرب جبل هنوم ووادي كتاف (وهو قائم حتى اليوم بالاسم نفسه ويرتبط بأحداث دامية وقعت مع الحوثيين في صعدة). ومن هذا الوادي يمكن للسائر أن يصعد سلسلة جبال جنب (وهي سلسلة جبلية مجاورة وموازية لسراة ها ـ نجب) ليصل إلى بيت بوس، حيث تكون أورشليم أمامه. أما النص الثاني فهو من سفر تثنية الاشتراع ويقول في وصف قدش ـ قدس ما يلي: (١: ٣٨: ١٨)

(عد ــ قدش ــ برنع ــ وء ــ مر ــ لك ــ م ــ ب ــ ءت ــ عد ــ ها ــ ءمري)

والترجمة الصحيحة للنص تقول:

(وعند قدش برنيع ، قلت لكم ها قد وصلتم حتى ــ جبل ــ الأموريين)

هذه القدس المزعومة التي وصلها بنو إسرائيل حسب القراءة المخيالية الاستشراقية، تقع قرب جبل يدعى جبل برنيع ـ برنع وتسمى باسمه، وهي لا تدعى أورشليم كما هو واضح من النص. كما

أنها تقع قرب جبل الأموريين. وكنا رأينا من نص يشوع السابق، أن قدش ـ قدس يمكن الوصول إليها من برية صين وجبل ءدره وهما موضعان لا تعرفهما فلسطين.

قدس في الشعر الجاهلي ورواية التوراة

لكل ذلك، لا بد من التمييز بين سائر المواضع الجبلية الواردة في هذه النصوص، منعاً للخلط بينها وبين القدس العربية في فلسطين. إن عدم التمييز والإصرار على المطابقة التعسفية والجهل بجغرافية التوراة، هو الذي أدى إلى حدوث خلط مأسوي في الجغرافيا، نجمت عنه فوضى عارمة في التاريخ الفلسطيني، اختلطت فيها وتداخلت عصور وجماعات وأحداث لا يجمعها جامع. وفي سياق التميز الذي نسعى إليه، سنعود إلى الشعر الجاهلي. لقد ورد ذكر قدس ـ بالضم ـ الجبل العربي الشامخ ـ وهما جبلان ـ في بطن وادي الرمة في الكثير من القصائد، بينما وصف الهمداني في «صفة جزيرة العرب» جبل قَدَس ـ بالفتح ـ في سلسلة جبال المعافر اليمنية. وهذا يعني أننا بالفعل أمام ثلاثة مواضع، تماماً كما في التوراة وبالاسم نفسه.

قال الشاعر الجاهلي أبو ذؤيب الهذلي:

فإنك حقا أي نظرةَ عاشقٍ نظرتَ و قُدسٌ دونها ووقير

وجبل قدس هذا ـ بالضم ـ والذي يتغنى به الهذلي، ليس جبل قَدَس ـ بالفتح ـ في جبال المعافر إلى الجنوب من مدينة تعز؛ بل جبل قرب وادي الرمة، وهما جبلان **أحدهما أبيض ويكنّى العرج، والآخر أنف أحمر شامخ وكلاهما قدس**، وقد وصفهما الأصمعي والهمداني ومعظم شعراء الجاهلية. وحسب **(لسان العرب)** لابن منظور؛ فإن كلمة قدس تعني (الموضع المرتفع الصالح

للزراعة) والتقديس (التطهير والتبريك) والقَدَس ـ بالفتح ـ السطل لأنه يتقدّس به. (كما يسمى قدس آرة).

وقال الأسود بن يعفر النهشلي (ويسمى أعشى نهشل لأنه تلقب بلقب الأعشى أيضاً):

وجـامـلٍ كـزهـاء الّـلاب كـلـّفـه
ذو عَـرمـضٍ مـن مـيـاه الـقـهـر أو قـدس

وقال البحتري:

فـإذا هـم افـتـخـروا بـه لم يـبـجـحـوا
بـقـديمِ مـا ورثـوا مـن الـعـلـيـاء
صـعـدوا جـبـالاً مـن عـلاك كـأنّـهـا
هـضـبـات قـدس ويـذبـل وحـراء

وقال خفاف بن ندبة السلميّ:

طَـرَقـتُ أسـيـمـاء الـرحـالِ ودونـنـا
مـنَـفـيـد غـيـقـةَ سـاعـدٌ فـكـثـيـب
فـالـطـود فـالملـكـات أصـبـح دونـهـا
فـفـراغُ قـدس فـعـمـقـهـا فـحـسـوب

وقال كعب بن زهير:

وأنـتَ امـرؤ مـن أهـل قـدس أوارة
أحـلـتّـكَ عـبـد الـلّـه أكـنـافُ مـبـهـلِ

وقال كثيّر عزّة:

كـأنَّ أخـاه في الـنـوائـبِ مـلـجـأ
إلـى عـلـمٍ مـن رُكـن قُـدس الـمـنـطـق

وقال كثيّر أيضاً:

فـكـأنـه إذ يـغـتـدي مُـتـتـمـاً
وهـداً فـوهـداً نـاعـق بـرئـالِ

كـالمضـرحـيّ عـدا فـأصـبـح واقـعـاً
مـن قُـدس فـوق مـعـاقـل الأوعـالِ

وقال أبو بكر الصولي:

لـهـفـي عـلـى مُـنـتـخـب حـلـمـه
أرجـح مـن رضـوى ومـن قُـدسِ

ومن سائر هذه المقتطفات نفهم أن العرب القدماء عرفوا قُدس في وادي الرّمة، وهما جبلان بإجماع الرواة والجغرافيين.

بين القدس وَقدش ـــ قدَس

سنقدم هنا وصفاً جغرافياً مقتضباً لمدينة القدس من أجل البرهنة على أن وصف التوراة لا يتطابق مع توصيفها. نشأت مدينة القدس في وقتٍ ما من تاريخ بلاد الشام، عند خط المياه الفاصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الميت، وفي بقعة خصبة مرتفعة. وقد يكون ما ميز نشوء المدينة، أنها بنيت فوق هضبتين، تحدّهما من الغرب السهول الساحلية، ومن الشرق نهر الأردن. أما

إلى الجنوب منها، فسلسلة جبال الخليل. يكتب الرّحالة العربي ابن حوقل عام ٩٧٨م ما يأتي (تبلغ مساحة القدس قدر مساحة الرملة وهي مدينة مرتفعة مبنية على تلال. ويتوجب عليك أن تصعد إليها من كافة الجهات).

مقاربة

وصف التوراة لجبل قدس	وصف الجغرافيين القدماء
فتجتاز صنه وتصعد من جنب إلى قدَش، وعبر وحضر فتصعد أدره	مدينة مرتفعة مبنية على تلال

يخلص المرء من هذه المقاربات الجغرافية إلى تقرير الحقيقة التالية: إنَّ المطابقة التي قامت بها القراءة الاستشراقية للتوراة، زائفة وتعسفية ولا أساس لها لا في النص الديني ولا في الجغرافيا التي تصوغها التوراة بدقة متناهية لا سبيل إلى الجدال ضدها.

تزيف وتصحيح
(نموذج دراسي)

والمثير للاهتمام في هذا السياق، أن ما من قارئ لتاريخ فلسطين القديم إلا وتصادفه غالباً، الرواية الاستشراقية التالية التي تتكرر في كل كتب التاريخ العربي ـ ويا للأسف ـ:

استمر الاستيلاء التدريجي للقبائل العبرانية على فلسطين، وتشكيل اتحاد القبائل الإسرائيلية لفترة امتدت لتصل إلى ما يزيد عن أربعمائة سنة.

وتصف التوراة هذه الأحداث بدقة تفصيلية متناهية، بالفصول التي تبدأ بحملة موسى عبر الصحراء وصولاً إلى سفر القضاة. ولم تدم المملكة الموحدة لكل من شاول وداود وسليمان سوى مائة عام ليس إلا ـ وهذه حقيقة يضع عليها بالمناسبة علماء التاريخ حديثاً إشارة استفهام ـ. وما لبث أن انفجر فيما بعد التناقض القديم بين قبائل الشمال والجنوب وقامت منذ ذلك الحين مملكتان للإسرائيليين، إسرائيل في الشمال لمدة مائة عام، ويهودا في الجنوب لمدة مائتين وعشرين سنة.

كلاوس بولكين (قديماً في البلد المقدس:
رحلات إلى فلسطين القديمة ١٩٨٦)

في هذه الرواية التقليدية للتاريخ الفلسطيني القديم، والتي يصادفها المرء في الكثير من المؤلفات (بما فيها كتب التاريخ العربي المعاصرة التي تتناول تاريخ القدس) يمكننا أن نحدد الكثير من الأخطاء الفادحة، فمثلاً لا يوجد حتى هذه اللحظة وعلى وجه الإطلاق، وبعد ما يقرب من سبعين عاماً من البحث في باطن الأرض كما بيّن عالم الآثار الإسرائيلي هرتزوغ[٤]، أي دليل تاريخي موثوق به

---

(٤) كتب هرتزوغ Herzog في نهاية عام ١٩٩٨ ما يلي: إن علماء الآثار الذين عملوا بحماسة منذ بدايات القرن ـ الماضي ـ بحثاً عن مواد تؤكد ما جاء في **العهد القديم**، لم يجدوا أي شيء. ولكن، كلما ظهر شيء ما على السطح؛ تأكد لنا بوضوح أن الكثير من قصص العهد القديم ليست صحيحة (فمن عهد داود وسليمان لم نجد سوى بضع قطع من الفخار، لا تتطابق =

في صورة لقى أثرية أو سجلات أو نقوش، يمكن أن يقدم على سبيل الدليل العلمي أو البرهان الموضوعي الدراسي، ومهما كانت قيمته، أي نوع من الدعم والتأييد لما يزعم أنه **«استيلاء القبائل العبرانية على فلسطين»**. إن المزاعم الرائجة في كتب التاريخ العربي عما يزعم أنه استيلاء القبائل العبرانية على فلسطين، مستمدة بالكامل من القراءة الاستشراقية الزائفة للتوراة. لقد بنيت هذه الرواية على أساس قراءة رأت في المرويات والأساطير والقصص مادة أساسية في «صناعة» تاريخ فلسطيني قديم، تظهر فيه القبائل الإسرائيلية قوة منتصرة، وهذا أمر يتنافى كلياً مع علم التاريخ؛ إذ من غير المنطقي اعتبار القصص الديني والمرويات دليلاً تاريخياً ما لم يجرِ إخضاعها للنقد والتصحيح. وعلى سبيل المثال مرة أخرى؛ فإن اعتبار كل ما ورد في التوراة هو التاريخ القديم لفلسطين، وأن كل الشخصيات الوارد ذكرها في نصوص التوراة هي شخصيات تاريخية، يتطلب تقديم تفسير مقبول لكل ما يبدو شاذاً وغرائبياً في تصرفات وسلوك أبطال هذه القصص. وهذا، بكل يقين ما لا يمكن معالجته علمياً، لأن القصص الديني يظل موضوعاً دراسياً لا موضوعاً تاريخياً.

إن التوراة، بكلمة موجزة قاطعة، لا تقول أبداً، ولا بأي صورة من الصور، إن الأحداث التي ترويها قد جرت أو دارت في فلسطين. كما أنها لا تشير لا من بعيد ولا من قريب لاسم فلسطين أو الفلسطينيين ارتباطاً بالأحداث المروية؛ فكيف أمكن «تلفيق» رواية

= مع وصف التوراة. لقد وجدنا، بالفعل قطعاً من عصور مختلفة، متأخرة وحديثة، وهو ما يعني أن المنطقة كانت مأهولة. بيد أن أياً من المكتشفات لا تبيّن أنها تنتمي إلى عصر داود وسليمان) ـ انظر للمزيد مؤلفنا: **شقيقات قريش** ـ شركة رياض الريّس للكتب والنشر بيروت ٢٠٠٢.

استيلاء القبائل العبرانية عليها؟ ومنْ هي القبائل العبرانية التي زحفت مع موسى من مصر نحو فلسطين، ومتى وأين وكيف، وما المقصود باتحاد القبائل الإسرائيلية؟ إن التاريخ لا يعرف أي شيء حقيقي عما يدعى «قبائل عبرانية»، سوى ما ورد في قصص التوراة؛ بل إن التوراة لا تقول إن نصوصها مكتوبة «بلغة عبرانية» أو إن القبائل الوارد ذكرها هي قبائل عبرانية؟ لكل هذه الأسباب ولأسباب أخرى أكثر وجاهة مما سنبيّنه تالياً، نحن نرفض اعتبار ما روته التوراة حقائق تاريخية تخص تاريخ فلسطين.

قَدَس التوراة ليست قُدس فلسطين

يُقصد بَقدَس، الجبل المبارك المُسمّى جبل قَدَس ـ بفتح الحرفين الأول والثاني كما يلفظه اليمنيون ـ في مخلاف المعافر القديم، نحو ٨٠ كلم إلى الجنوب من تعزّ باتجاه عدن، والذي لا يزال معروفاً، حيث عاش هناك ذات يوم بعيد من التاريخ، شعب عربي من شعوب وقبائل العرب العاربة، يدعى بالعبرية **فلستيم**، وفي العربية الفَلس أو الفلست (حسب طريقة الكتابة اليمنية وفي نطق بعض أهل اليمن مثل قرشت في قريش، وفرست في فرس). كما يكتب اسم هذا الشعب القديم باستخدام الهمزة والميم في أوله ـ وهما أداتا التعريف المنقرضة التي حلت محلها أداة تعريف جديدة هي الألف واللام ـ في صورة (ءم فلس ـ الفلس مثل ءم رجل في الرجل وءم بعير في البعير، وهي لغة في جنوب الجزيرة العربية). لقد صورت القراءة الاستشراقية المخيالية هذا الشعب على أنه شعب من الغرباء عاشوا وأقاموا في فلسطين التاريخية، وأنهم كانوا من

المتسللين الذين قدموا من جزيرة كريت (اليونان) واستولوا على أرض الميعاد اليهودي. وهؤلاء ـ الفلستيون ـ كما تقول التوراة في نصوص متفرقة، عاشوا كجماعة وثنية متمردة ودخلوا في معارك وحروب طاحنة مع بني إسرائيل. وفي الواقع لا وجود لجبل في القدس العربية، كما أنها لا تقع على جبل. ولذلك فنحن الآن في مواجهة الحقيقة التالية:

أن جبل قَدَس ـ قَدَش هذا، لا يزال يحتفظ باسم الجماعة القديمة التي تدعى الفلست وبالضبط تماماً كما ورد في رواية التوراة. إليكم هذا الاكتشاف:

يصف الهمداني في كتابه (**صفة جزيرة العرب**) كلاً من الجبل والجماعة القديمة التي عاشت بالقرب منه في أول سراة اليمن، ابتداءً من أرض المعافر فساحل بني مجيد ـ مجدو فجبال عدن. وفي هذا الشريط الساحلي الطويل، نشأت ممالك يمنية قديمة تُعرف بالمخاليف (منها مثلاً مخلاف ذبحان وجبأ ـ جبع وصبر وصحارة ووادي الضباب، ومعظم سكانها من قبائل همدان والأشعريين). يقول الهمداني في (صفة: ١١٨ ـ وانظر هامش المحقق حول وادي الضباب) ما يأتي:

> ثم يتصل بمخلاف المعافر في هذه السراة، بلد الشراعب من حِمْيَر (والضباب وادٍ في قَدَس من المعافر جنوبي هذا، والضباب أيضاً في المفاليس(١) من المعافر أيضاً) ثم يتصل بسراة الكلاع سراة بني سيف.

---

(١) قارن بين المفاليس وأمفاليس الكلمة الإغريقية ـ انظر الهامش التالي.

ها هنا قَدَس وها هنا المفاليس(٢) (ها ـ فلستيم. والميم اليمنية ـ الحميرية بديل من الهاء العبرية كأداة تعريف). يعني هذا أن التوراة وهي تتحدث عن قَدَس، وعن ها ـ فلستيم (الفلستيون من فلست) إنما تتحدث عن هؤلاء حصراً لا عن الفلسطينيين. إن وضع الرواية التوراتية في هذا الإطار الجغرافي هو المفتاح الذهبي في حل ألغاز التوراة برمتها، وفهم السبب الحقيقي لا لعسر نصوصها وبعض تراكيبها المعقدة وحسب، وإنما فهم السبب الأكثر جوهرية في فشل العلماء في العثور على أي دليل علمي يؤكد وقوع الأحداث التي ترويها التوراة في فلسطين. والأهم من كل هذا، أن التوراة لا يمكن أن تقرأ قراءة صحيحة، إلا إذا وضعت في بيئتها الحقيقية التي ولدت فيها، ونعني البيئة الروحية القديمة لجنوب غرب الجزيرة العربية. ولذلك؛ فإن إعادة وضع الرواية التوراتية في بيئتها التاريخية، سوف تكشف لنا عن الوجه الحقيقي للتاريخ المُتلاعب به، وبشكل أخص رواية التوراة لحادث السبي البابلي. لقد احتكر المخيال اليهودي المعاصر حادث السبي البابلي برمته، ونسبه إلى اليهودية وحدها، مع أن الحادث التاريخي، لم يكن موجهاً ضد جماعة بعينها؛ بل شمل جماعات أخرى. وكما أن هذا الاحتكار

---

(٢) المثير للاهتمام في هذا النطاق أن الإغريق عبدوا ـ تحت تأثير معبودات وآلهة الفينيقيين ـ معبوداً يدعى (أمفالس) Omphalos وهو عبارة عن حجر مخروطي وجد في معبد أبولو (هبل). لقد قدّس الإغريق هذا المعبود بوصفه رمزاً لسرة الأرض (سرّة العالم). هذا المعبود يحيلنا إلى اسم الفلس ووظيفته، فهو أيضاً رمز (لسرّة الأرض) والفلس في اللغة: السرّة. وما يلفت الانتباه أكثر أن كلاً من الفلس و(أمفالس) عبدا بوصفهما رمزاً لإله الخصب، وتكمن رمزيته الجنسيّة المقدّسة في الشكل المخروطي للعضو الذكري. كما يلفت الانتباه أكثر التماثل بين الاسمين (أمفالس، ومفاليس ولاحظ الهمزة والميم مثل عم رجل في الرجل). للمزيد: أنظر الجزء الخامس من **فلسطين المتخيّلة** (التوراة الإغريقية).

يصادر حق هذه الجماعات في استذكاره واستعادته كجزء من تاريخ المنطقة في عصر الإمبراطورية البابلية ـ الآشورية؛ فإنه يتلاعب في «جغرافية الحادث»، وذلك حين يجري تصوير مسرحه في فلسطين. إن تصحيح هذا الجانب من التاريخ، يمكن أن يكون له تأثير هائل على مستوى مواجهة الفوضى في العصور والأحداث التي تسبب فيها المخيال الاستشراقي. لكل ذلك، سوف نبدأ من لائحة الأسرى التي سجلها كتاب اليهودية المقدس.

لائحة أسرى القبائل العربية اليهودية في السبي البابلي

تتضمن القائمة التالية التي أعدها عزرا النبي، للأسرى من القبائل اليمنية اليهودية في بابل، بعد قرار الملك الفارسي قورش عام ٥٣٩ ق.م إطلاق سراحهم وتحريرهم من العبودية، والسماح بعودتهم إلى أورشليم القديمة إثر سقوط بابل في يده؛ طائفة نادرة من أسماء القبائل اليمنية التي لا وجود لها في فلسطين. إن هذه القائمة التي نعيد ضبطها في سياق إعادة تحديد المواطن التاريخية الحقيقية للقبائل والجماعات، المنفية والعائدة إلى موطنها بموجب المرسوم الإمبراطوري، تؤكد لنا بشكل قاطع صحة ما ذهبنا إليه، وأن الذين تعرضوا للسبي كانوا من القبائل العربية اليهودية التي وجدت نفسها، ذات يوم من التاريخ البعيد في مواجهة دامية ومتواصلة مع الإمبراطورية البابلية ـ الآشورية (الوثنية). وهؤلاء لا صلة لهم بفلسطين لا من قريب ولا من بعيد. لقد وقع الحدث برمته وبكل تفاصيله الإنسانية المحزنة في سراة اليمن لا في فلسطين. ولعل القائمة التي سجلها عزرا النبيّ وتضمّ أسماء وأنساب الأسرى من أبناء القبائل، تشير بوضوح لا مثيل له إلى أصولهم العربية ـ اليمنية. وهؤلاء كما سوف نبيّن، يمثلون جماعات بدوية دانت

بدين بني إسرائيل في اليمن القديم، وقد جرى أسرها ونفيها من أوطانها في إطار حملات حربية متتابعة قامت بها الإمبراطورية الآشورية لبسط نفوذها على سواحل البحر الأحمر. هاكم ملخصاً عن الرواية كما دوّنها عزرا (النص العبري: ١: ١١: ٢: ٢٠).

في العام الأول لسقوط بابل ٥٣٩ ـ ٥٤٠ ق.م، قرر الملك الفارسي قورش إعادة السبي من القبائل إلى مدنه وقراه الأصلية. ولأجل هذا الهدف نشر في بابل، نداء الملك الذي تضمن إعلان تحرير القبائل العربية اليهودية، وحقها في العودة إلى مواطنها وفي إعادة بناء ما تهدم من مدنها، وخصوصاً أورشليم التي في يهوذه ـ أي أورشليم بيت بوس في سرو حِمْيَر. كما تضمَّن قرار الملك الفارسي السماح للعائدين من الأسر، بالحصول على تبرعات من سكان بابل لأجل بناء مدنهم المهدمة. وإلى جانب هذا كله، أعاد قورش ممتلكات الهيكل المنهوب في أورشليم، وسلّمها إلى زعماء وأنبياء القبائل العائدة. ونظراً لطول النص فسوف نكتفي بأسماء أبرز القبائل والعائلات العائدة من السبي. يقول عزرا ما يلي:

(وءله ـ بني ـ ها ـ مدينه ـ هعليم ـ م ـ سبي ـ هجوله ـ ءشر ـ ل ـ هجوله ـ نبوكد ـ نصر ـ ملك ـ ببل ـ ل ـ ببل ـ يشوبي ـ ل ـ يروشلم ـ ويهوده ـ ء يش ـ ل عيرو ـ ء شر ـ بئو ـ عم ـ زرببل ـ يشوع ـ نحميه ـ شريه ـ رعليه ـ مردكي ـ بلشن ـ مصفر ـ وبجوي ـ رحوم ـ بعنه)

(وهؤلاء، أبناء البلاد ممن صعدوا من السبي، والنفي الذي قام به نبوخذ نصر ملك بابل إلى

> **بابل. عادوا إلى أورشليم ويهوده. كل إنسان إلى منزله. والذين جاءوا مع زُربل هُمَّ: يشوع، وَنحْميَه، وشريه، ورعليه، ومردك وبلشن ــ بلسن، ومسفر، وبجاي، وبعنه...)**

ثم يضيف النص ما يلي: ومن بين القبائل العائدة من السبي، كان هناك بنو جبر وهم خمسة وتسعون نفراً، وبنو بيت لحم ــ لخم: مئة وثلاثة وعشرون نفراً، وبنو حريشه، وكروب وأذن وأمير. وبعض هؤلاء بحث عن كُتّاب أنسابهِ فلم يعثر له على دليل يؤيد انتسابه الصريح إلى بني إسرائيل. ولذلك تم استبعادهم من القائمة ومن سلك الكهنة واعتبروا غرباء، فعاش بعضهم في بابل إلى الأبد مندمجاً مع السكان. ومع هذا تم السماح لبعضهم الآخر ولاعتبارات مختلفة بالعودة ضمن القائمة. ويلاحظ في هذا النص أنه يستخدم تعبير (هؤلاء أبناء البلاد) أي بلاد اليهودية. إن هذا التعبير نموذجي في الثقافة العربية القديمة، فالأوطان القبلية تسمى (بلاد ــ بلدان، مثل بلاد طي وبلاد غطفان إلخ). وفي قائمة نحميا ــ نحمْيَه الثانية (التي سوف تكتب بعد أكثر من نصف قرن على مرسوم قورش) سنجد أن من بين القبائل العائدة، **بني صيحه، وبني حسفه، وبني رصين ــ رضين، وبني ناصح، وبني حجاب، وبني عبيد، وبني شلمه ــ سلمه، وبني شعرئيم** (الشُّعْراء) **وبني حشم** (نحميا: النص العبري: ٧: ٢٧: ٥٩). فأين يمكن للمرء، إذا ما أراد معرفة الحقيقة عن السبي البابلي، أن يعثر على هذه الجماعات والقبائل؟ **إن فلسطين التاريخية لا تعرف قبيلة واحدة من هذه القبائل**، لا من خلال بقايا أنسابها ولا من خلال بقايا لغوية تؤكد وجودها. وليس ثمة أي وثيقة تاريخية أو نقش أو سجل من سجلات الإمبراطورية البابلية ــ الآشورية أو الفارسية، يمكن أن تدعم فرضيات الرواية

الاستشراقية القائلة بوقوع السبي في فلسطين. كما أن فلسطين لا تعرف الأماكن والمواطن والمواضع التي تنتسب إليها هذه الجماعات حتى في صورة بقايا لغوية. علماً أن كل هذه الأسماء هي لمواضع ومواطن وبطون عربية ـ يمنية صريحة النسب. هاكم ـ أولاً ـ القائمة التي أعددناها عن قائمتي نحميا ـ نحميه وعزرا ـ عزره:

قائمة القبائل العائدة من الأسر البابلي

الاسم في العبرية	الضبط العربي
١: بنو جبر	بنو جبر
٢: بنو بيت لحم	بنو لخم
٣: بنو حريشه	حريش
٤: بنو صيحه	صيحه
٥: بنو حسفه	حسفه
٦: بنو رصين	رضين
٧: بنو ناصح	ناصحه
٨: بنو حجاب	حجاب
٩: بنو عَبيد	عَبيد
١٠: بنو شلمه	سلمه
١١: بنو حشم	حشم
١٢: بنو شعرائيم	الشَعْرَاء

١٣: بنو أمير	أمير
١٤: بنو أذن	أذن
١٥: بنو كروب	أكراب
١٦: بنو عدين	عدين
١٧: بنو مسفر	السفر
١٨: بنو جزم	جذم
١٩: بنو حقوفه	حقف
٢٠: بنو برقش	برقش
٢١: بنو محيدا	الحيدا
٢٢: بنو قروس	بني قريس
٢٣: بنو سوطه	سوط
٢٤: بنو حارف	بنو خارف
٢٥: بنو نطوف	نطوف

تعطي هذه الأسماء فكرة عمومية؛ ولكنها شديدة الأهمية عن طبيعة ومضمون القائمتين الطويلتين لعزرا ونحميا. كما أن الأسماء في صيغها الأصلية توفر للقارئ فرصة التعرف بنفسه وبموضوعية أكبر إلى العدد الحقيقي للقبائل العائدة من السبي.

١: بنو جَبر:

أقام بنو جبَر ـ بالفتح ـ وبنو أذنْ ـ أذان، قديماً في سرو حِمْيَر (مع بني أذان وهم من يافع جنوب اليمن). كما أقاموا في خولان العالية. وقد وصف الهمداني مواطنهم القديمة وأوديتهم ومنازلهم بشكل تفصيلي على النحو التالي (**صفة**: ١٧٢ ـ ١٧٣):

> سرو حِمْيَر وأوديته وساكنُه: العر لأذان من يافع وذو ناخب لبني جَبَر منهم، سَلَب لبني جَبَر، العِقة للأهجور منهم. وادٍ ، وهم بنو هجر، وفي كل هذه المواضع قرى ومساكن كثيرة أرض حلالهم وأحلافهم من بني جعدة. من الأودية: الضباب ووادي حضَر الذي فيه محجة عدن إلى صنعاء.

هذه هي منازل بني جبر وأذان، تماماً كما في القائمتين وفي المكان نفسه الذي استهدفته الحملات الآشورية عند وادي حضر ـ حصر في النص العبري. إن توصيفاً دقيقاً كهذا يستحيل العثور عليه في فلسطين؛ بينما يمكن ـ عند وضع الرواية التاريخية عن السبي البابلي في إطارها الجغرافي الصحيح ـ الحصول على جواب اللغز المحيّر في قصة السبي، وربما على تصورٍ أكثر دقة عن طبيعة أهداف الحملات الحربية وخط سيرها. وهذا ما يتوافق كلياً مع المصوّرات الآشورية للأسرى (التي كانت تزين جدران المتحف العراقي قبل نهبه في ٢٠٠٣) بوصفهم جماعات من البدو. والمثير للاهتمام أن عزرا ونحميا وفي عصرين مختلفين، يشيران في قائمتيهما إلى أعداد الجمال التي سمح للقبائل بحصرها ضمن ممتلكات العائدين. هذا يعني أن العائدين كانوا جماعات بدوية، ظلت تحتفظ بممتلكاتها من الجمال وتتوارثها طوال سنوات السبي في بابل.

٢: بنو بيت لحم ـ لخَمْ[٣]:

وهم سكان موضع عرف باسم بيت لحم ـ لخم في وادي صيحان من أرض اليمن. أقام بطن من اللخميين في العراق وأسس مملكة الحيرة الشهيرة. قال النابغة الذبياني (**الديوان، وصفة**: ٣٢٥):

ولخم ملوك الناس يجبى لهم إذا قال منهم قائل فهو واجب

٣: بنو حريشه[٤] ـ حريش:

أقام بنو حريش في منطقة الفلج على مقربة من موضعين شهيرين في التوراة، هما مسيل مياه أون ووادي الشكول ـ ءشكول. هاكم وصف الهمداني (**صفة**: ٢٦٤) لمنازلهم التي تعرف ـ تاريخياً ـ بهدار بني الحريش:

(ثم من بطانة العارض من عن يمينه ماءان متدانيان يقال لأحدها أوان (..) ومياه منها الشكول فتأخذ

---

(٣) اليمنيون القدماء ينطقون الحاء المهملة خاء معجمة تماماً كما عند اليهود اليوم. وبيت لحم اليمنية ورد ذكرها في قصة مشهورة في مطلع الإسلام، عندما جاء تميم الداري اللخمي إلى النبي محمد ـ ص ـ (وكان سائحاً في الجاهلية طاف على البلدان) فقال للنبي ـ ص ـ : إن الله مظهرك على الأرض جميعاً فهب لي قريتي من بيت لحم. فلما كان يوم فتح الشام، قال عمر بن الخطاب ـ رض ـ أشهد أن النبي ـ ص ـ كتب لتميم الداري ـ اللخمي ـ ببيت لحم. تُرى لماذا يطلب رجل يمني من قبيلة لخم، بحق ملكية قرية بيت لحم في فلسطين بوصفها من أملاك قبيلته المهاجرة من اليمن إلى بلاد الشام، لو لم تكن هناك رابطة حقيقية بين القبيلة لخم والقرية بيت لحم؟

(٤) حريشه: اليمنيون يزيدون الهاء في آخر الكلمة فيقولون في وادي بيش ـ بيشه وفي حريش ـ حريشه.

إلى الطريق الآخر على الهدار هدار بني الحريش
أول الجزع فيه لبني خلدة من الحريش)

ويضيف (**صفة: ٢٦٥**):

(.. رجعنا إلى الفلج: مهب الجنوب منه المذراع، مذراع بني قشير بن سلمة من بني الحريش ثم الشطبتان وهما نخل ومياه لبني الحريش. ثم العقيق وفيها مائتا يهودي ونخل كثير..)

ترى هل هي محض مصادفة أخرى أن يكون بنو حريشه ـ حريش في هذا المكان الصحراوي حيث بقايا قبائل عربية يهودية من بينها بطن من بطون سلمه ـ شلمه؟

٤: بنو صيحه:

أقام **بنو صيحة** في موضع يحمل الاسم نفسه في الجوف اليمني على مقربة من سلسلة مواضع شهيرة في التوراة، ومنها وادي صيد ـ صيده وبيت بوس. ومن غير شك؛ فإن وجود بني صيحة قرب أورشليم اليمنية التي عادوا إليها من السبي البابلي، يعدّ أمراً مذهلاً لجهة تطابقه مع وصف الهمداني. هاكم هذه المقاربة بين النصوص:

التوراة: (نصوص متفرقة)	الهمداني (١٥٦ ـ ١٥٨):
بيت بوس وكانت أورشليم وعاد إلى أورشليم بنو صيحة	بيت بوس وصيحة

وقد وصف الهمداني منازل بني صيحة في منطقة الجوف اليمني

قرب حيفه ـ حيفا، وهم ممن عاد إلى أورشليم القديمة حسب قول عزرا ونحميا (**صفة**: ١٥٨):

> **والحيفه ـ حيفا ـ وبيت ذانم، فصيحة، فمساك وناعط وبلد الصيد وبه أودية من ظاهر بلد همدان.**

٥: بنو حسفه:

أقام بنو حسف ـ والعرب عموماً تضيف الهاء إلى آخر الأسماء ـ في وادٍ من أهم أودية خولان، يُعرف بالاسم نفسه قرب سلسلة من الوديان والجبال التي سجلتها أسفار التوراة كأسماء منازل للأسباط، مثل حجلة وصرَع وأدير وعاشر وسحر. وقد ورد وصف الهمداني لهذا الوادي ولمنازل هذه القبيلة في (**صفة**: ٢١٥ ـ ٢١٦):

٦: بنو رصين ـ بنو رضين:

نلاحظ من نصوص متفرقة من التوراة، ـ كما جرى تحقيق نصوصها وتأويلها في القراءة الاستشراقية، أن المعارك بين بني إسرائيل والآراميين قد تم توظيفها للبرهنة على وجود ملك في التاريخ السوري يُدعى رصين، وأن أحد ملوك مصر كان يدعى سو ـ سوءه، وقع في أسر القوات الآشورية في معركة رفح. علماً أن قوائم ملوك سورية ومصر المعروفة لا تتضمن مثل هذين الاسمين، كما أن وجود رصين ـ رضين في قائمة العائدين من السبي البابلي، بوصفه اسم بطن من بطون القبائل العائدة، يجعل من المتعذر قبول خلطٍ مريع من هذا النوع. يعني هذا أن المخيال الأوروبي ظل يتجاهل عن قصد أو عن جهل، حقيقة الالتباس في

الترجمة وفي تأويل الأحداث؛ إذ من المستحيل أن يكون رصين اسماً لملك سوري وفي الآن ذاته هو اسم بطن إسرائيلي؟ ولذلك يجب أن يُرسم الاسم في صورة رضين بالضاد المعجمة التي لا تعرفها العبرية. إن العودة إلى وصف الهمداني لمنازل بني رضين (صفة: ٢٢٠ ـ ٢٢٣) سوف تكشف عن هذه الحقيقة.

٧: بنو ناصح:

أقام بنو **ناصحه** ـ ولاحظ دخول الهاء على آخر الاسم ـ إلى جوار بني حريش على مقربة من وادي الرمة ـ وفي القائمتين هناك جماعة عائدة من السبي تدعى بنو الرمة ـ وصف الهمداني بإسهاب منازلها وجبالها ووديانها في (**صفة:** ٢٥٨).

٨: بنو حجاب:

أقام بنو **حجاب** في وادٍ قديم لم يعد اليوم موجوداً، رغم أن الهمداني وصفه بشيء من التفصيل على مقربة من وادي أمير ـ أمير في القائمة وإلى جوار بني نقد. وهؤلاء لم نسجل اسمهم في قائمتنا وهم سكان أعلى خولان أي قمته. كما أنهم أقاموا قرب منقل السفر ـ مسفر (ولاحظ الميم وكيفية تحولها إلى أداة تعريف عربية حديثة). هذا المنقل يُدعى اليوم سفران، بينما يُدعى وادي حجاب ـ وادي الحجابات (بالجمع) (**صفة:** ١٢٨). وبالطبع فمن المستحيل توقع مصادفة كهذه، أي أن نجد وادي أمير قرب وادي حجاب ـ حجابات، وعلى مقربة من منقل سفر ـ مسفر ونقد ـ القد. وهذا هو المكان نفسه الذي عاشت فيه قبيلة بني عبد ـ عبدي (عبده) تماماً كما في قائمتي عزرا ونحميا. وهذه، كما هو

واضح لنا، مواضع تسمت بها بطون وجماعات يمنية. إننا لا نعرف في فلسطين جماعات كانت من بين الأسرى العائدين من بابل إلى أورشليم، لا تزال تحمل مثل هذه الأسماء والأنساب والألقاب. ويبدو أن العرب القدماء عرفوا القد ـ نقد هذا في رسمه العبري: نقده ـ نقوده تماماً كما في القائمتين. ويستدل من بيت شعر اختلف فيه الجغرافيون؛ أن لبيد بن ربيعة عنى هذا الموضع في قصيدة ذائعة الصيت. قال (البكري، **معجم**، طبعة بيروت: ٤: ١٠٨):

فقد نرتعي سَبتاً وأهلكِ جيرةً محل الملوكِ نقدة فالمغاسلا

٩: بنو عَبيد:

الرسم العبري للاسم هو **عبيده ـ عبيدي**. لكن الرسم العربي الشائع في ترجمات التوراة هو: **عَبيد**. ونظراً لافتقاد النص العبري للفواصل، فقد تم دمج الاسم مع اسم جماعة قبلية أخرى وردت ضمن التسلسل بعدها وهم من بني شلمة ـ سلمه، ليصبح الاسم غريب التركيب بعض الشيء: سليمان. ومع أن لا صلة بين الاسمين إلا في حالة واحدة، أن يقال مثلاً: أن عبيد هذه هي عبيد سلمه، تماماً كما يقال اليوم في الجزيرة الفراتية (عبيد طي) في إشارة إلى بطن من بطون القبيلة يدعى عبيد، وتمييزاً له عن بطن آخر من العبيديين يحمل الاسم نفسه. ولنتذكر أن علماء الآثار اكتشفوا طبقة ما يعرف بـ(حضارة العبيد) قد تكون سابقة على ظهور الأكديين، وهو الأمر الذي يدعم فكرة أن الهجرات العربية الأولى (في الطفولة البعيدة للعرب وقبل تكوّنهم التاريخي كجماعة) قد وصلت العراق القديم بالفعل. يدلل هذا النموذج في طريقة قراءة الأسماء على طبيعة العقلية الاستشراقية،

فهي تبحث عن (عبيد) بمعنى خدم مفترضين لسليمان الملك، كانوا في عداد الأسرى، وذلك من أجل إضفاء طابع تاريخي على الحادث، ولذا وجدتهم في تواتر الاسمين عبيدي ـ عبيدة وسلمه. في الواقع لم يكن هناك عبيد لسليمان الملك بين الأسرى، بل هناك بطن من قبيلة عبيد ينتسب إلى سلمه، وهؤلاء عاشوا في بلاد الشرق (تكثر الإشارة إلى بلاد الشرق في التوراة وفي قائمتي عزرا ونحميا ويسجل الاسم مع بني سفر وحجاب ونقد وبني أمير). وهذا أمر آخر مثير للاهتمام، لأن فلسطين لا تعرف مثل هذا التعبير؛ بينما يُكثر الهمداني ـ على غرار النص التوراتي من استعمال وصف بلاد الشرق. لقد أقام بنو عبد ـ أو عَبيدة الذين يعرفهم التاريخ بوصفهم من قبائل زبيد، كما أنهم من بطون بني حريش، في مخلاف عامر على مقربة من بني سلمه ـ شلمه، وفي المحافر قرب محافظة حجة (والمحافر هذه تسجلها التوراة في صورة محفر) تماماً كما في قائمتي عزرا ونحميا. وقد وصف الهمداني منازل الجماعتين بدقة (**صفة**: ١٨١ ـ ١٨٣).

نخلص من ذلك إلى تأكيد الحقيقة التالية: ليس ثمة عبيد لسليمان في حادث السبي البابلي، ونبوخذ نصر لم يأسر بكل تأكيد عبيداً لملك مات قبل عدة قرون سابقة عليه. وهل من المنطقي أن يظل عبيد الملك على قيد الحياة بعد كل هذه القرون؟ وهل بقي عبيد لملكٍ لم يبق من أثر لمملكته عام السبي؟ وهل هي مصادفة أخرى أن نعثر على القبيلتين إلى جوار بعضهما؟

١٠: بنو سلمه:

يقول النص العبري عن بني **عبد ـ سلمه** ما يلي: وءله ـ هعليم

ـ م ـ تل ـ ملح) (وهؤلاء صعدوا من تل الملح). ومع هؤلاء: بنو حريشه، وأذن وكروب وأمير. وهذا النص يتطابق حرفياً مع وصف الهمداني (صفة: ٢٠٣ ـ ٢٠٤) لمخلاف رداع وثات الذي أقامت فيه قبائل سلمه، وكذلك لمخلاف مأرب حيث جبل الملح.

١١: حشم وجذم:

تنتسب قبيلة حُشم إلى جذام ـ جزم (العبرية تفتقر إلى حرف الذال المعجمة وتستبدله بالدال المهملة أو الزاي) القبيلة الأكثر شهرة عند العرب (جزم في قائمة عزرا ونحميا) وهي من بطونها التي هاجرت إلى مصر. ومن غير شك؛ فإن وجود حشم وجذام ضمن القائمتين يؤكد أن القبائل العائدة من السبي، إنما عادت إلى بلادها القديمة ومواطنها مع بني حريش وبطونها من سلمة وعبد.

١٢: شعرائيم:

يعطي المترجمون لهذا الاسم، عادة وحيث ورَدَ في نصوص التوراة، مكافئاً غريباً هو: الباب في المفرد شعر ـ والأبواب في صيغة الجمع (شعرئيم). ويبدو أن الحيرة تملكت المترجمين حين وجدوا أنفسهم أمام قائمتي عزرا ونحميا التي يظهر فيها اسم قبيلة من القبائل التي أسرها نبوخذ نصر تدعى شعرائيم. واستطراداً في المخيالية، تمت مكافأة الاسم بـ (البوابين). وبذلك أصبح لدينا قبيلة لا وجود لها ويستحيل العثور عليها هي قبيلة البوابين. في الواقع ليس ثمة قبيلة تدعى (البوابين) من بني إسرائيل، بل هناك قبيلة عربية ـ يمنية بائدة عاشت في موضع الشَعْراء ـ شعرئيم (اسم الجمع العبري من شعر وهو جبل شهير وصفه الهمداني في مواضع كثيرة). إن كلمة شَعْراء (اسم الجمع من شعر) تكتب في العبرية في صورة شعرئيم.

واليمنيون يطلقون على الأشجار الكثيفة في المناطق الجبلية والوعرة والتي لم تمسسها يد الإنسان تعبيرَ شعْراء.

١٣: بنو أمير:

تقول واحدة من الروايات الشعرية القديمة، إن بعض رواة الشعر الجاهلي قرأ قصيدة ورد فيها اسم «أمير». وعندما سئل عن معنى (أمير) في قصيدته لاذ بالصمت، فقال له أعرابي في المجلس، إن أمير اسم وادٍ. في الواقع لم يكن كثرة من رواة الشعر الجاهلي يعرفون بعض الأسماء الواردة في القصائد. واسم وادي أمير هذا، ظل منسياً في ذاكرات الرواة لقدمه وربما لبعده عن البادية العربية، فكانوا يخطئون في تحديده. إن فلسطين التاريخية لا تعرف قبيلة تنتسب إلى وادٍ يدعى أمير؛ بينما تعرف جغرافية اليمن القديم هذا الوادي والقبائل التي أقامت فيه. هاكم وصف الهمداني (صفة: ١٣٤ ـ علماً أن اسم وادي مور في صفة جزيرة العرب ورد حرفياً في التوراة)

> وادي مَوْر وهو ميزاب تهامة الأعظم ثم يتلوه في العِظَم وبُعد المآتي زبيد ومساقي مَوْر تأخذ غربي همدان، وبعض غربي خولان وكريف خولان ويسمى ما يصل إليه: أمير.

١٤: بنو أزن ــ أذن:

أثار اسم هذه الجماعة الالتباس عند محققي النص العبري؛ فظنوا أنه ذاته السبط الإسرائيلي (دان). ولذا رسموا الاسم في صورة أدان، والصحيح ءذن ـ أذن كما في النص العبري. والتاريخ العربي يعرف اسم الملك اليمني سيف بن ذي يزن (إذن) وهم من

القبائل البدوية التي عاشت عند أطراف نجران الرملية (ولنلاحظ طريقة نطق اليمنيين القدماء لحرف الذال الذي يتحول إلى زاي كما في العبرية: عذن ـ عزن). وهذا ما يفسر قول النص: إنهم عادوا مع جمالهم التي بلغت أربعمائة وخمسة وثلاثين جملاً. وبعض بطون هذه القبيلة عاش بالفعل في سرو حمير قرب جبل الغُر، وكانوا يحملون الاسم نفسه **أذان**، وقد وصف الهمداني منازل هذه الجماعة البدوية (البطن القبلي من أذان اليمنية) التي عادت إلى يهوذه ـ وأورشليم (**صفة**: ٢٢٨ ـ ٢٢٩) أي إلى السراة اليمنية وليس إلى فلسطين.

١٥: الأكراب:

أقام بنو ـ **الأكراب** (ولاحظ العلاقة الدلالية في اسم كرب بمعنى الملك) في مخلاف عامر الساحلي على مقربة من أخوتهم بني عزا ـ عزان وبني سلمه؛ تماماً كما في نصّي عزرا ونحميا. وقد وصفهم الراجز اليمني الرداعي في أرجوزته عن الحج على النحو التالي (**صفة**: ٣٥٥):

فالأجرعين فحمى الأكراب   فالضمانين إلى الشحاب

فأحرماً منها إلى الثعلاب   مواطناً مكلئة الجناب

وهذا الرجز يحدد ـ على غرار قائمتي نحميا وعزرا ـ موضع بني عحرم قرب الأكراب. وبنو عحرم من حكام صور اليمنية، وقد سجلت التوراة اسمهم في صورة عحرم ملك صور الذي ساعد سليمان الملك في بناء هيكل الرب حين أرسل له الأخشاب من وادي صور. وبالطبع فمن غير المنطقي تخيل أن سليمان كان قادراً على استيراد الأخشاب من صور اللبنانية، بينما يشتهر وادي صور

اليمني بأنه من أعظم الوديان في إنتاج الأخشاب. ولعل قصة الحريق الذي التهم الأشجار في صور اليمن (وورد ذكرها في حديث شريف) يدلل على حقيقة أن صور اليمن اندثرت بفعل حريق بركاني مدمر. إن أحداً لم يلتفت إلى التناقض المريع في القراءة الاستشراقية في هذا الجانب من تأويل الأسماء؛ إذ من غير المنطقي أن يكون ءحرم ملك صور اللبنانية وفي الآن ذاته هو بطن من بطون القبائل الأسيرة. وإذا كان ءحرم ملكاً لبنانياً كما تزعم القراءة المخيالية الغربية، فلماذا وأين ومتى جرى أسره في حملة نبوخذ نصر؟ وهل يعرف التاريخ المكتوب أي شيء عن أسر ملك صور اللبنانية في هذه الحملة؟

١٦: بنو عدين ـــ عدين:

يطلق اسم مخلاف الكلاع في الماضي البعيد لليمن على ما يعرف ببلاد ذي السفال (انظر السفل عندنا في مرويات التوراة عن الفلستيين). كما يطلق على بلد حبيش وعلى عدين ـ تصغير عدن ـــ. وقد وصف الهمداني ومحققه موضع بني عدين اليمنيين (صفة: ١١٨) في بلد الكلاع ـ بالفتح ـ التي اشتهر سكانها بإلحاق النون في كلامهم (فهم يقولون في صنعا ـ صنعن ولا وجود للنون اللاصقة إلا في العبرية واللهجات اليمنية).

١٧: بنو حقوفه ـــ حقف:

يُعدّ **وادي الأحقاف** (جمع حقف) من أودية حضرموت في بلد مهرة، وهو رمال تعرف باسم رمال الحقف ـ مفرد أحقاف. وفي الموروث الديني والمثيولوجي للعرب القدماء وللقبائل اليمنية؛ فقد دفن النبي هود ـ يهوده (يهوذا) في هذا المكان داخل كهف. قال

الراجز اليمني الرداعي (**صفة**: ٤٠٠):

ثم استطفت كقطاة الحقف عن منزلٍ شأزٍ قليل الوقفِ
تعتسف الموماة أي عسف براكبٍ لم يدرِ ماذا يخفي

يقول الهمداني (**صفة**: ١٦٩ ـ ١٧٠) عن وادي حقف ـ الأحقاف ما يلي:

وساكن شبام من حمير ثم تريس وهي مدينة عظيمة، وينحدر المنحدر منها إلى ثوبه قرية بسفلى حضرموت في وادٍ ذي نخل، ويفيض وادي ثوبه إلى بلد مهرة وحيث قبر النبي هود، وقبره في الكثيب الأحمر ثم منه في كهف مشرف في أسفل وادي الأحقاف، وهو وادٍ يأخذ من بلد حضرموت إلى بلد مهرة مسيرة أيام وأهل حضرموت يزورونه هم وأهل مهرة في كل وقت.

١٨: بنو براقش ـ برقش:

أقام بنو **برقش** إلى جوار أخوتهم من بني حقف في موضع يحمل اسمهم (براقش). وحول هذا الموضع دارت سلسلة من أساطير لقمان الحكيم(٥). والهمداني يقدم وصفاً مسهباً عن مواضع هذه الجماعة (**صفة**: ١٧٠ ـ ١٧١) فهم يقطنون مع بني حقف قرب قبر النبي هود في الكثيب الأحمر أسفل وادي حضرموت.

---

(٥) انظر كتابنا: **شقيقات قريش** ففيه تفصيلات وافية عن أساطير براقش. (**شقيقات قريش**: الأنساب والطعام في الموروث العربي ـ بيروت، رياض الريس للنشر ٢٠٠٠).

وبالطبع؛ فإنه لأمر مثير للاهتمام حقاً أن تكون هناك قبيلة من سكان الأحقاف ـ حقوف في عداد الأسرى تعود مع العائدين إلى يهوذا كما في نص التوراة، وفي الآن نفسه نجدها عند الهمداني وهي تعيش قرب ما يعرف بقبر النبي هود؟ علماً أن الياء اللاصقة في أول الاسم لهجة يمنية معروفة: يعرم في عرم، يكرب في كرب، يعرب في عرب، يقطن في قطن.

يقول الهمداني (ولاحظ استخدامه لتعبير شَعْراء): ومن أوطان الجوف: معين[٦] وبراقش ثم كمنا وروثان (..) وأتان إلى وتران. كل هذا شَعْراء بين شاكر والشعر أودية كتاف، يسيل إلى العقيق، والعطف، وضدح، وادٍ لأمير ينتهي إلى الغائط والحضن بنجران لها ولأمير. والمشهور من محافد اليمن وقصورها القديمة التي ذكرتها العرب في الشعر والمثل، قصور ناعط وصرواح وسلحين وريام وبراقش ومعين وروثان والنجير بحضرموت.

١٩: بنو محيدا ـ بنو الحيدا:

أقامت هذه القبيلة في وادٍ يعرف بالاسم نفسه هو وادي **الحيد ـ محيد** على مقربة من أخوتهم بنو معين ـ معونيم عند عزرا ونحميا. هاكم مقاربة أخرى:

---

(٦) معين: مملكة يمنية مزدهرة لعبت دوراً بارزاً ومشهوداً في الحضارة اليمنية القديمة. عاش الشعب المعيني في منطقة الجوف في عصر يعود إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد، عندما كانت الجوف (ما يعرف اليوم بمنطقة الحزم شمال شرق اليمن) هي المنفذ التجاري الأهم الرابط بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها. ولا تزال نقوشها تتضمن الكثير من وقائع التاريخ غير المكتوب بعد. وإلى هذا فإن بعض الحروف التي استخدمتها تشبه طريقة رسم الحرف العبري.

نحميا:	الهمداني ٢٣٢
وبنو بيصه ثلاث مئة وأربعة وعشرون (..) وبنو محيدا	ووادي الحيد ووادي خلب (..) وعثر ساحل جليل، ووادي بيض.

هذا هو الساحل وهناك وادي بيصه ـ بيض ومحيد ـ الحيد.

٢٠: بنو سوطه ــ سوط:

أقامت هذه الجماعة في موضع يحمل الاسم نفسه؛ هو وادي سوط في اليمامة وكان ـ في عصر الهمداني لبني جُرمْ (بيت جرمه[٧]) وورد ذكرهم في وصف أودية اليمامة وقبائلها (صفة: ٢٥٣):

٢١: بنو حارف ــ خارف:

في النص العبري يسجل اسم الجماعة وعدد أفرادها العائدين إلى بلاد يهوذه (بلاد اليهودية) على هذا النحو: بني ـ حرف ـ مئه ـ شنيم ـ عشر (بنو خارف مئة واثنا عشر). ولأن العبرية لا تعرف حرف الخاء المعجمة، فقد استعاضت عنه بحرف الحاء المهملة (حارف). والضبط الدقيق للاسم هو قبيلة خارف اليمنية الشهيرة التي عرفت بموطنها القديم خارف. (الهمداني: صفة: ٢٢٠ ـ ٢٢١) في أول حدود حاشد حيث رحابة وما وراءها إلى صنعاء،

(٧) انظر الاسم في مرثية حزقيال لمدينة صور.

ثم البون وهو من أوسع قيعان نجد اليمن، ثم قريس وصيحة ومساك وظبرة وهي لبني حاطب من الخارف. أما أسواق حاشد فأولها وأقدمها سوق همل، وهمل من الخارف وهي سوق جاهلية وباري للفائش ـ الفائس[٨] وهم من قبائل الجبر ـ جبْر.

٢٥: نطوفه[٩] ــ نطوف:

يرسم اسم هذا الوادي بدقة في بيت شعر لأمية بن أبي عائذ في صورة وادي النطوف، من دون الهاء الزائدة. ومن الواضح أن للهجات القبائل وأشكال نطقها للحروف، أكثر من دورٍ حاسمٍ ومكرّس لطرائق النطق عند الآخرين وفي ظهور أساليب الرسمِ المتباينة كذلك. قال أمية بن أبي عائذ راسماً الاسم على نحو مطابق للرسم العبري (**معجم البكري**، طبعة بيروت: ١: ١١٣):

لمن الديار بعليَ فالأخراصِ فالسودتين فمجمع الأبواصِ

فضُهاء أظلمَ فالنطوف فصائف فالنمر فالبرقات فالأنحاصِ

وعند كثير الشاعر اليمني، يعدّ النطوف من أودية تهامة اليمن على مقربة من هضبة جبلة[١٠]، وبطن السرير وأسفل وادي الرمة. وقد رسمه الهمداني على جري عادات العرب الصوتية في صورة

---

(٨) تخبرنا التوراة أن عليفز ـ أليفس (أليفاز في الرسم الشائع) هو من عيصو. وعند الهمداني هم الفائس ـ باستبدال الزاي بالسين مثل أزد ـ أسد وهم بطن من جبر وجدّهم الأعلى العيص ـ عيصو. أليس هذا التماثل مدهشاً؟ انظر نسب الفائس في **الإكليل** للهمداني وفي **التوراة**.

(٩) الهاء الزائدة من لهجات العرب.

(١٠) اسم جبلة اليمنية هذه نقلته القبائل العربية المهاجرة إلى الساحل السوري وهي اليوم هناك.

نطاف (صفة: ٢٥٩) باعتباره من وديان بطن السرير أسفل وادي الرمة (..) وهي على التوالي: عكاش وخف والنطاف.

هذه ـ بصورة إجمالية ـ القبائل والجماعات العائدة من الأسر البابلي إلى سلسلة جبال يهوذه. وهي كافية للتأكيد على ما ذهبنا إليه (ويمكن في مناسبة أخرى نشر القائمة كاملة). فهل هي مصادفة أن القبائل التي وقعت في الأسر تحمل الأسماء نفسها كما في نصوص التوراة والهمداني والشعر الجاهلي؟ بينما لا تعرف فلسطين اسماً واحداً مما ورد في القائمتين؟

الفصل الثالث

إعادة بناء أورشليم في سراة اليمن

في العام ٤٤٦ ق.م، وبعد نحو سبعة وثمانين عاماً من سقوط بابل في قبضة الفرس، أصدر الملك الفارسي إرتحششتا الأول، أمراً ملكياً جديداً يُسمح بموجبه لبقايا اليهود من القبائل العربية ـ البائدة ـ التي أسرها الآشوريون، ولم تتمكن من الاستفادة من مرسوم الملك قورش، أن تعود إلى مواطنها الأصلية. بيد أن أهم ما جاء في المرسوم، كان التأكيد على حق الأسرى العائدين في بناء ما تهدم من مدنهم وقراهم، ومنها بشكل أخص العاصمة الدينية أورشليم. وبموجب هذا المرسوم عاد نحميا النبي (الذي وضع القائمة الأصلية بالعائدين) إلى أورشليم. كان الفارق الزمني بين قائمتي عزرا ٥٤٠ ق.م ونحميا ـ نحميه ٤٤٦ ق.م، يشير إلى أن حل مشكلة بقايا الأسرى قد استغرق نحواً من سبعة وثمانين عاماً، وأن نحميا النبي نفسه (الذي لم يكن قد ولد في عام سقوط بابل ٥٣٩ ق.م) كان في عداد المستفيدين من المرسوم الجديد. وفور عودته إلى بلاد

اليهودية موطنه وموطن آبائه في سرو حمير، مكث نحميا ـ نحميه ثلاثة أيام في منزله، قبل أن يباشر بدعوة سكان أورشليم إلى الشروع الجدي والنشط في العمل على ترميم ما تهدم منها. وكنا تتبعنا في ما مضى من صفحات أسماء هذه القبائل. واستناداً إلى النص العبري من التوراة، فقد انطلق نحميا ليلاً من موضع يدعى شعر، وهو كما قلنا جبل شعر، وليس ثمة في فلسطين جبل بهذا الاسم، فبلغ وادياً شهيراً يدعى وادي عيان. ثم وصل أثناء تفقده للأسوار المهدمة، وادياً يدعى ها ـ تنين ـ التنين، حيث رأى بنفسه الخراب الذي عمّ أسوار المدينة في موضع فروصيم ـ الفراضم، وشاهد ما تركته النيران هناك من أثرٍ مدمّر. ثم اجتاز المكان متجهاً من (جبل شعر ووادي عيان) إلى موضع ءل ـ بركت ـ سلوه ـ مياه سلوه قرب جن ـ جن، قبل أن يصل وادي ها ـ ملك ـ المالك ثم وادي جنات ـ جنات. وأخيراً وصل نحميا ـ نحميه النبي إلى تحتم وبهمه (وحتى اليوم هناك قرية في الساحل السوري تسمى كفر بهم)، قبل أن يجتاز الوادي من جبل شعر مرة أخرى في طريق عودته.

لم يكن أحد من الكهنة يعلم بخطط نحميا بخصوص إعادة بناء أورشليم. ويبدو أنه حرص على جعل الأمر أقل إثارة للخلاف، بسبب تحفظات القوى الطامحة إلى لعب دور رئيسي في إعادة البناء. وأكثر القوى طموحاً هم الكهنة والقبائل اليمنية اليهودية التي لم تتعرض للنفي، وظلت في أرضها وأوطانها. ومع ذلك سرعان ما تسربت الأنباء عن عزم نحميا على قيادة عمليات البناء. كانت إعادة البناء ترتبط ـ من المنظور السياسي ـ بالصراع على عرش داود، أي بالصراع على تسمية ملك جديد في مملكة يهوذا (قوم هود في المرويات العربية الإسلامية). فضلاً عن ارتباطها بحساسيات قبائلية بعضها يتصل بمسألة الخوف من تمنع الفرس، وربما غضبهم

من عودة المملكة اليهودية إلى واجهة الأحداث. وهذا بدوره كان يتلازم مع مخاوف تقليدية من تنامي دور الإمبراطورية الفارسية في السراة اليمنية، بعد أن أصبحت فارس الإمبراطورية الأعظم في المنطقة. هذا النفوذ ـ كما سنبرهن ـ بدأ اعتباراً من هذه اللحظة، ولسوف يستمر طويلاً. وفي الواقع؛ فإن الأساس التاريخي للنفوذ الفارسي في اليمن والذي تجلى في أنصع صوَره في الصراع الروماني ـ الفارسي، منذ سقوط ميناء عدن في يد القوات الرومانية نحو العام ٥٠ ق. م؛ إنما يعود إلى هذه اللحظة بالذات، وحيث ارتبط منذئذٍ بفكرة التحرير. وسوف نرى أن فكرة التحرير الفارسي لليمنيين، أي تحرير القبائل اليمنية اليهودية من الأسر البابلي، ذات وشائج ثقافية حميمة بالتحرير الفارسي لليمن من نفوذ الحبشة المسيحية، الوكيل القوي لروما في المنطقة نحو العام ٥٧٠ للميلاد. إن بعض أوجه المقاومة التي ظهرت إبان محاولة نحميا قيادة عمليات بناء أورشليم، تكمن في التنافس المحموم بين القبائل العائدة من النفي، وتلك التي ظلت في أرضها، وهو تنافس تقليدي بين العائدين الطامحين إلى الزعامة، والقوى المحلية. كما أن بعض أوجهها الأخرى تتصل بالصراع بين الوثنيين والموحدين.

سارعت قبيلة جشم اليمنية ـ العربية البائدة (والتوراة تقول إن **جشم قبيلة عربية وتسميها جشم العربية** حرفياً) مع أولى الأنباء عن شروع نحميا في عمليات إعادة البناء إلى قيادة معارضة قوية، انطلاقاً من إحساسها بأن هذه العمليات سوف تؤدي إلى الصدام عاجلاً أو آجلاً مع الفرس، وبالتالي تكرار الأحداث المأسوية التي عاشها هؤلاء مع الاحتلال الآشوري. كما وجد العمونيون ـ سكان نجران ـ في التصدي للمحاولة ومقاومتها، فرصة لمنع تكرار الاضطهادات التي تعرض لها هؤلاء في عهد داود وأسلافه. أي مقاومة عودة الاضطهاد

الديني الذي مارسته اليهودية ضد الوثنية والوثنيين في نجران. ومع ذلك؛ وبالرغم من وجود كل هذه القوى المتمنعة، قرر نحميا المضي قدماً في أعمال البناء والمباشرة فيها. وسرعان ما انضم عدد من الكهنة إلى المشرفين على عمليات إعادة البناء.

بدأت أولى الأعمال ـ وحسب وصف نحميا نفسه ـ من موضعي شعر وضئن ـ ضأن (وتعني في العبرية غنم وكان موضعاً مقدساً) وصولاً إلى مجدل ـ مجدل. ومن هذا المكان إلى وادي حنن ـ ءيل (الحنا ـ الحنان بزيادة النون الكلاعية كما في الرسم العبري). ثم استمرت من شعر ـ ها ـ دجيم إلى وادي تنوريم وبركت ـ سلوه. ثم تواصلت بعد ذلك من مياه سلوه إلى وادي جن ووادي ـ ها ـ ملك حتى عير ـ دويد (منازل دويد) مروراً بموضع قبره ـ مقبرة، فإلى بيت جبريم ـ بيت الجَبر. ومن بركت ـ ها ـ عشويت ـ بركة العشتين حتى نشق ـ أرض نشق، فإلى فتح ـ فتح وبيت اليشب ـ ءلشب (الشبا). ومن بيت ها ـ ملك وها ـ عليون إلى وادي حصر ـ حضر. وأخيراً امتدت أعمال البناء إلى وادي مطره ـ مطرة.

هذه هي أسماء المواضع التي تفقّدها نحميا قبل أن يباشر في أعمال ترميم أسوار العاصمة الدينية أورشليم، بمساعدة وتأييد مباشرين من الكهنة. إن هذا الوصف الدقيق وبالأسماء النادرة التي يتضمنها، لا يكاد يقبل أي جدل بشأن المسرح الجغرافي لقصص ومرويات التوراة؛ إذ يستحيل مطابقة جغرافية فلسطين التاريخية مع جغرافية الأرض التي تتحدث عنها قصة بناء أورشليم. ويلاحظ من هذا الوصف، أن أورشليم في قلب سلسلة متشابكة من الجبال والوديان لا وجود لها في فلسطين القديمة.

وصف أسوار أورشليم

رأينا من موجز القصة، أن نحميا تفقد مواضع وأسوار المدينة المدمرة، قبل أن يشرع في إصلاحها بالرغم من وجود قوى معارضة. ولا بد ـ في إطار هذا السرد ـ من ملاحظة أن كلمة شعر العبرية تؤدي معنى باب، مثلما اجتهد المترجمون وهو اجتهاد صحيح. لكن المعنى لن يستقيم في حال اعتماد هذا المكافئ، إذ لا يقصد سارد النص أن نحميا سار كل هذه المسافة لينطلق من (الباب) بل قصد الإشارة إلى جبل شعر الذي انطلقت منه أعمال البناء في الوديان. وهذا ما نراه بوضوح في جملة: (وءصئه ـ ب ـ شعر ـ ها ـ جيء ـ ليله) أي (وخرجت ليلاً في شعر المرتفع). ولو كان المعنى المقصود ينصرف إلى (الباب) لما أضاف سارد النص كلمة (ها ـ جيء، :المرتفع) لأن لا أبواب للوديان كما نعلم. هذا يعني أن المقصود ليس باباً من أبواب المدينة وحسب، وإنما وادي وجبل شعر نفسه، وهو كما رأينا مخلاف شهير من مخاليف اليمن. وهكذا، وقبل أن تنطلق أعمال ترميم الأسوار من هذا المكان، اتجه النبي إلى (فني ـ عين ـ ها ـ تنين ـ وء ل ـ شعر ـ ها ـ ءشفت) أي: إلى قبالة وادي عيان ووادي تنين فإلى جبل شعر فوادي الشفاه. وبالطبع فهذه أسماء أماكن يستحيل العثور عليها في القدس العربية.

على هذا النحو شاهد نحميا الحطام الذي تركته الحرب في أسوار أورشليم الممتدة حتى موضع فروصيم. واللافت للانتباه، أن المترجمين الذين لم يعثروا على مكافئ عربي مقبول لكلمة فروصيم، أعطوا المعنى التالي (باب الزبل). وفي الواقع لا يوجد باب للزبل أو النفايات في مدينة مقدسة مثل أورشليم؛ بل موضع يدعى فروصيم ـ فراضم (الفُراض: والعبرية لا تعرف حرف الضاد

وتستبدل به حرف الصاد مثل ءرص ـ ءرض). وهناك شاهد نحميا أيضاً، كيف أن النار التهمت أجزاء واسعة من الغابات: (وشعريه ـ ءكلت ـ ب ـ ءيش) أي (والشَعْراء أُكلت بالنيران). وهذا يؤكد المعنى الحقيقي لكلمة شعر ـ شعرئيم، أي الأشجار الكثيفة التي لا دخل ليد الإنسان في زراعتها. وكنا رأينا أن كل مكان كثيف الأشجار يدعى عند اليمنيين القدماء شعر ـ وَشعْراء. ثم اجتاز نحميا موضع الشعر هذا متجهاً صوب وادي عيان وصوب البركة ثم وادي الملك: (وءعبر ـ ءل ـ شعر ـ ها ـ عين ـ وءل ـ بركت ـ ها ـ ملك). أي (واجتزت الشعر وعيان والبركة ووادي المالك). ومن غير شك؛ فإن السائر في القدس العربية لن يتمكن من المشي في هذه المواضع، لأنها أصلاً غير موجودة. وفي هذا السياق سنتوقف أمام الجملة الإشكالية التالية.

يقول نحميا (وءين ـ مقوم ـ ل ـ بهمه ـ ل ـ عبر ـ تحته). وقد أعطى المترجمون الجملة التالية (فلم يكن للدابة التي تحتي مكان تجوز عليه). بيد أن الجملة ـ حرفياً، لا تقول هذا المعنى أبداً، وليس ثمة ما يبرر مثل هذا الوصف؛ إذ من غير المنطقي أن تكون الوديان خالية من موطئ قدم لدابة، وهي وديان فسيحة مترامية الأطراف؟ ما يقصده النص هو التالي: (ليس من مسكنٍ إلى بهمه حتى تجتاز التحت). وهذان الموضعان (بهمه والتحت) في الفضاء الجغرافي نفسه الذي وصفه نحميا. وإذاً، ليس ثمة دابة لم يجد راكبها موطئ قدم لها، بل هناك موضعان بالاسمين نفسيهما. لقد رأينا مما سبق، أن نحميا يصف مواضع كثيفة الأشجار (أي غابات محترقة على امتداد الوديان) لم تدخل فيها يد الإنسان. وسيكون أمراً منطقياً أن لا يشاهد ـ هناك ـ أي مساكن للقبائل، علماً أننا أشرنا إلى حقيقة أن مواضع شعر

وشعراء، ظلت أماكن لرعي القبائل البدوية حتى اليوم. بعد ذلك صعد نحميا في الوادي ليلاً، وكانت الأسوار أمام ناظريه محطمة فمضى عائداً في شعر الوادي، يدعو الكهنة وعموم اليهود والقبائل إلى إعادة بناء أسوار المدينة. فقال لهم:

(وءومر ــ ءلهم ــ ءتم ــ رئيم ــ ها ــ رعا ــ ءشر ــ ءنحنو ــ به ــ ءشر ــ يروشليم ــ ها ــ حربه ــ وشعريه ــ نصتو ــ ب ــ ءيش ــ لكو ــ ونبنه ــ ءت ــ ها ــ حومت يروشليم ولء ــ نهيه ــ عود ــ حرفه).

ما يقوله هذا المقطع من النص هو التالي:

(فقلت لهم: ها أنتم ترون ــ الرعا ــ الذي فيه أورشليم وما نحن فيه، حيث حزية والشعراء التي أكلتها النيران، فلنقم ونبنِ أسوار أورشليم حتى نهيه وعود وحرف)

لقد تعرض هذا المقطع البسيط إلى تشويه فظيع، حين كافأ المترجمون جملة (لء ــ نهيه ــ عود ــ حرفه) بجملة (ولا نكون عاراً بعد اليوم). ومع أن مؤدى الجملة العبرية لا يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى العار الذي تكرر في كلام نحميا من دون مبرر بسبب الترجمة الخاطئة، كما أن الجملة لا تتضمن كلمة (يوم) فإن المترجمين الذين يجهلون المواضع التي شهدت ولادة وموت أورشليم القديمة، لم يترددوا في إعطاء تأويل عشوائي آخر، فقد تحولت كلمة ها ــ رعا إلى العار، مع أن كلمة رع وليس ها ــ رعا في العبرية هي التي تؤدي معنى الإساءة أو الخزي. كما أن وصف نحميا للمواضع

التي أراد إصلاحها وترميمها ـ من أسوار المدينة ـ تحوّل برمّته إلى جملة إنشائية عن العار الذي سوف يلحق بالجماعات المشاركة. وهذا أمر غير مفهوم والسياق لا يشير إلى معنىً من هذا القبيل. ولسوف نرى أن مواضع نهيه وحرف والرعا وعود هي من أهم المواضع التي ارتبطت تاريخياً ببيت بوس، أي بأورشليم اليمنية. هكذا، وما إن سمع سنبلط الحوروني ـ من وادي حوران ـ وطوبيا ـ من بني عمون ـ وجشم ها ـ عربي (جشم العربي) بأنباء مشاركة القبائل في بناء أسوار المدينة المقدسة حتى تعالت اعتراضاتهم على الفكرة من أصلها، لا تخوفاً مما يمكن أن يجلبه ذلك من مخاطر، بل لأن نحميا استثنى هذه الجماعات من حق المشاركة بصورة قاطعة. إثر ذلك؛ بدأت عمليات إعادة البناء التي قادها كاهن الجدول من موضع شعر وصئن ـ ضأن (غنم) فأصلحت المداخل حتى مجدل وها ـ مأه المقدسة، وكذلك عند مجدل حنن ـ ءل (الحنا) حيث تسابق الرجال، فامتدت أعمال الترميم إلى طرف جبل شعر ووادي دجيم (وادي الدجوج) فأصلحت المداخل والأبواب والمخارج. ثم بلغت تخوم أورشليم القديمة عند أسوار (ها ـ رحبة والمجدل) من جهة وادي تنوريم ـ نوريم. كما امتدت إلى مخارج جبل ألف ـ ءنف وفي وادي ءمه وحوامه وعند شعر من جهة ها ـ شفوت (الشفاه). ومن ثم من السور الذي في ركبت ـ الركب وسلوه ـ سلوه حتى وادي جن ـ جن ووادي ها ـ ملك ـ الملك؛ فإلى عير ـ دويد (منازل دويد).

هذه ـ بإيجاز شديد ـ هي أورشليم التي عاد إليها المنفيون، وباشروا أعمال البناء في أسوارها المهدمة. ومن غير أدنى شك؛ فإن السرد الدقيق الذي قدمه النبي نحميا ـ نحميه ينطوي على توصيف لمدينة لا صلة لها بمدينة القدس الفلسطينية، إذ لا وجود فيها لأي مكان

من الأمكنة الواردة في النص. **وسوف تتجلى المفارقة الكبرى حين ندقق في قائمة أسماء القبائل والجماعات التي شاركت في بناء المدينة، فهي قبائل عربية ــ يمنية دانت بدين اليهودية لا تزال بقاياها هناك في السراة اليمنية وليس في فلسطين.**

لقد وصف الهمداني سائر هذه المواضع قرب بعضها البعض، فتعالوا نتتبع الطريق إلى أورشليم التوراة، ونعيد اكتشافها **لنفرغ نهائياً من الخرافة القائلة أن القدس هي أورشليم.**

في وصفه لشرق صنعاء الذي يقع بينها وبين مأرب، نعني مخلاف خولان ــ جولان التوراة أعظم أودية اليمن وأكثرها خصباً وشهرة ــ يحدد الهمداني سائر المواضع المذكورة في هذه القائمة وبالصيغ ذاتها وحسب تسلسل وقوعها في السراة ابتداءً من بيت بوس. ومن أجل تقريب صورة أورشليم اليمنية ــ التوراتية، سنقوم بإعطاء وصف مكثف للأماكن. قلنا إن التوراة تسمي أورشليم (بيت بوس) كما أن مخلاف اليهودية عرف باسم أورشليم أيضاً. أي أن أورشليم اسم يطلق على المملكة ــ المخلاف يهوذه (ما يعرف في الإخباريات العربية بقوم هود) باعتباره دار سلام، كما يطلق على بيت بوس في آن واحد. وحسب النص أعلاه؛ يكون النبي نحميا قد تفقد الأسوار في المدينة قبل أن يشرع في البناء على امتداد السرو. هاكم وصف الهمداني لبيت بوس اليمنية وما جاورها من سائر المواضع الواردة في القائمة ــ النص أعلاه ــ (صفة: ١٥٣ ــ ١٦٥ ــ النص مختصراً):

وتفضي ــ السيول ــ إلى موضع السد بين مأزمي مأرب ثم الحرجة وحزمة البشريين (حزمة البشريين تسمى اليوم: **سلوه** في وادي عبيدة وفيها آثار

> عظام ـ المحقق). ثم **الجوف وهو منفهق من الأرض فيه أنف**، ويفضي إليه أربعة أودية وما أقبل من أشراف نقيل **السود فبيت بوس** (..) **ومطرة** وفيها أودية كثيرة (..) **فالرحبة إلى** حدقان (..) ويلتقي بمياه الخارج التي هبطت من صنعاء ومخاليفها فتلتقي بالمناحي، ثم يصبان بعمران من أرض الجوف. وهذا الجانب **لبني نشق** وبني عبد بن عليان. والوادي الثالث يظهر في زاويته وحوام والمناحي لبني علوي (..) فتلقاه سيول بلد بني حرب (...) وسيل الفقع والمصرع **وعيان والمقبرة** ويلقي هذه المياه إلى ناحية الواغرة **الشبا**.

وإذا ما سرنا على خُطى نحميا والهمداني انطلاقاً من بيت بوس ـ أورشليم، وتفقدنا أسوار المدينة المحطمة في السراة الجبلية، ثم مضينا في الأودية المحيطة بها، نطابق بين الأسماء في النص المقتطف من الهمداني مع جزء من قائمة نحميا؛ فسوف نكون وجهاً لوجه ودفعة واحدة أمام أكثر من عشرة مواضع.

ها هنا بيت بوس وهي أورشليم تماماً كما في قول نحميا وإلى الجوار سائر المواضع التي وصفها نحميا مثل بركة سلوه ـ مياه سلوه، ثم مطره وأوديتها الكثيرة. وقبل أن نتجه نحو بيت نشق ـ نشق عند الهمداني ـ سنتجه نحو عيان ـ عيان في القائمة ـ ثم إلى بيت اليشب ـ الشبا. وها هنا المقبرة (قبره). وعدا هذا كله، هناك جبل ألف ـ ءنف التي توهمها المترجمون كلمة دالة على القياس (وترجموها إلى: ألف ذراع) مع أن النص العبري لا يشير

إلى ذراع أو ياردة أو أي وحدة قياس. وها هنا الرحبة ــ ها ــ رحبة والعشتان ــ عشتوت. هذا الفضاء الجغرافي المتكامل يتيح لنا فرصة التأمل عميقاً في مغزى القصة التوراتية عن إعادة بناء أورشليم، بوصفها فكرة تنبع في الأصل من استطراد ثقافي لتقاليد بناء الأماكن الدينية أو المحرّمة. وبالفعل؛ فإن أورشليم القديمة كما عرفها اليمنيون، كانت مدينة الضعفاء من الناس ممن يشتغلون في الحِرَف الوضيعة والمتكسبين الذين لا يجيدون القتال، وهم يعيشون فيها كجماعة مسالمة يحتقرها البدو ويأنفون من السكن معها. وحتى اليوم لا يزال اليمنيون يحتفظون بصورة مثيرة عن نفور البدو من دخول هذا النوع من المدن، فهم لا يفضلون العيش فيها لأنها (مدن ضعفاء الناس). وقد أطلقوا في وقتٍ ما على بعض المدن اسم (هجرة ــ وتلفظ بالجيم المصرية) وكأنها إشارة إلى أن سكانها من الغرباء. ويكفي أن ننعم النظر في الوصف الذي تركه لنا الأزرقي، الإخباري الشهير ومؤرخ مكة، لبيت العبادة اليمني (القليس) في صنعاء، لنلاحظ تقاليد البناء القديمة فنقوم بمقاربتها مع أسلوب بناء أورشليم؛ وهو وصف شيق ونادر لمكان عبادة ديني بناه الأحباش عندما احتلوا اليمن. وكلمة قليس تعني كنيس ــ بقلب النون لاماً ونطق الكاف قافاً وهذا هو الأصل في كلمة كنيست بإلحاق التاء اللاصقة ــ. إن أسلوب البناء يذكّرنا بالأسلوب الذي اتبعه نحميا في بناء الأسوار.

وإذا ما عدنا إلى خولان شرق صنعاء، متتبعين خطى نحميا على الطريق ذاتها من الوادي، ومتجهين إلى وادي التنين (ها ــ تنين) فسوف نكون مرة أخرى أمام المواضع ذاتها (**صفة**: ٢١٥ ــ ٢١٧):

> الأودية أولها من شمالها: منازل آل الروية وبعد ذلك قرى كثيرة مثل **البركة** (... أي بركة سلوه ـ المؤلف) ويلاقيها سيل مغارب صنعاء من مخلاف **مأذن** والبوارق (..) وما يصب منها إلى مأرب، فهو ملاقٍ لمياه عنس وذمار وردمان **وتنين** (..) وبلد همدان فإنه آخذ لما بين الغائط وتهامة ونجد السراة في شمالي صنعاء (.) ومن **شرقي الرحبة** ويسكن هذه المواضع بلحارث ومن همدان **ووادي مطره** (..) وبمطرة أودية عظام فيها الزروع والأعناب (..) وإتوة لذبيان بن عليان (..) إلى مساقط الجوف (....) وساكن هذه المواضع ضاحية وضياف بن عليان، ـ **فوادي ـ عيان**.

هذه هي البركة ـ البركة وهذه هي تنين ـ تنين التي سار إليها نحميا. وها هنا وادي مطره ـ مطرة ووادي عليان ـ عليون والرحبة ـ الرحبة. وإذا ما مضينا في هذا الفضاء الجغرافي الرحب قصْدَ التعرف على أثرٍ محتمل للجماعات والمواضع الواردة في نص نحميا، فسوف نكون مرة أخرى، أمام الأسماء ذاتها. هاكم وصف الهمداني لحدود حاشد (**صفة**: ٢٢٠ ـ ٢٢٣): فأول حدود حاشد وما وراءها إلى صنعاء، البون والرحبة وقاع وجرفة حاشدية ـ بوسانية وسنام الظاهر بلد وادعة بن عمرو بن مالك بن جشم (..) فما بين ذلك العيب فبهمان (..) وتسمى عذر هذه عذر مطرة (..) وباري للفائش من الجبر وعيان. ها هنا أقام بنو جشم العرب الذين قادوا المعارضة القوية لبناء المدينة، بسبب ذعرهم من أن يؤدي ذلك إلى عودة الفرس للضغط عليهم، وربما تكرار

تجربة الغزو والسبي. وإلى جوار مضارب هؤلاء قرى تعدّ بوسانية وحاشدية (أي تنتسب إلى بيت بوس وإلى قبيلة حاشد ــ وفي قصص سليمان سنرى الاسم نفسه: حاشد). وها هنا وادي بهمان ــ بهمه (بإلحاق النون الكلاعية في نطق أهل اليمن والذي تصوره المترجمون بهيمة أو دابة ركبها نحميا فلم يتمكن من اجتياز الطريق). بينما يصفه الهمداني وصفاً مسهباً ضمن بلد حاشد، كوادٍ خصب فيه أنواع من العنب الجيد وإليه يُنسب العنب البهماني. وهذا الوادي هو بالضبط قرب الخارف كما في النص أعلاه. وفي هذا الفضاء الجغرافي نجد أودية مطرة وعيان ــ عين وقبائل الجِبْر ــ جبريم. ثم مخلاف الجند وهو قاع ــ تقوع في النص. إن التوصيف أعلاه لا يحتاج إلى الكثير من التفاصيل للاستدلال إلى أورشليم التوراتية ــ اليمنية أو إلى أسوارها التي جرى ترميمها؛ إذ يمكن للسائر أن يتجه من خولان فحقل صَعْدَة وصولاً إلى نجران، ليشاهد جبل ووادي شعر وشعراء؛ بل وأن يشاهد الأشجار الكثيفة المحترقة هناك وقد توزعت فوق مساحات شاسعة. على هذا النحو، تتكشف أمامنا أورشليم القديمة المحترقة شيئاً فشيئاً؛ كما يتكشف أمامنا المعنى الحقيقي لقول نحميا: (فلنقُم ولنبنِ أورشليم من نهيه حتى العود وحرف) فإذا ما سرنا من مخلاف مأرب متجهين إلى بلد الركب، حيث رأينا أن سيول جباله تبلغ تخوم نجران، فسوف نجد هناك جبل بني مالك وتحتم[1] ــ تحته وهو من الجبال المسنمة (أي التي لها قمة تشبه سنام الجمل) قال فيه السليك بن السلكة (صفة: هامش المحقق: ٢٠٤):

---

(١) لاحظ كيف دخلت الميم كأداة تعريف على الاسم (تحت، أو تحته) فأصبح: تحتم.

بحمد الإله وامرئ هو دلني حويت النهاب من قضيبٍ وتحتما

وقال فيه لبيد:

وهل يشتاق مثلك من ديارٍ دوارسِ بين تحتم فالخلالِ

وهذا ما سنرى مغزاه في قائمة أسماء القبائل العربية اليهودية التي شاركت في بناء أورشليم.

القبائل والجماعات المشاركة في بناء أسوار أورشليم

تولى كاهن ها ـ جدول ـ الجدول ويُدعى ءل ـ شب ـ الشبا بنفسه، ومعه طائفة من اليهود، بناء سور أورشليم من جهة جبل صئن ـ ضأن (غنم). وصئن ـ ضأن هذه ترجمت إلى الغنم، بحيث أصبحت الجملة على النحو التالي: (وبنوا باب الغنم). ومع أن فلسطين لا تعرف باب الغنم هذا، وليس ثمة موضع في طول القدس وعرضها يدعى غنم؛ فإن الهوس بلغ ذروته مع الحفريات الأثرية تحت مسجد قبة الصخرة في القدس، بحثاً عن بقايا أسوار وأبواب أورشليم، وخصوصاً باب الغنم المزعوم هذا. ولذلك سعى التوراتيون إلى المطابقة بين اسم جبل أبو غنيم البعيد عن مسجد قبة الصخرة، وبين صأن ـ غنم التوراتية هذه. في الواقع لا يوجد موضع أو باب قديم لأورشليم يدعى باب الغنم؛ بل هناك جبل مقدس وشهير في السراة اليمنية هو جبل غنم بالفعل، وليس أبي غنيم. وهذا الجبل لا يزال يحمل الاسم المعرب غنم ـ من كلمة صئن العبرية ـ في المكان نفسه. ويبدو أن كلمة ضأن أغرت المِخيال الأوروبي على الافتراض أن المقصود منه جبل غنم. لكن علماء الآثار لم يعثروا على جبل بهذا الاسم، بينما نجده في السراة

الجبلية اليمنية وباسمه المعرب: غنم. ثم شرع الكاهن شبا (كاهن الجدول) بإصلاح وبناء أول أسوار أورشليم من موقعه في وادي الجدول حتى وادي (ها ــ مأه) المأه. والغريب أن المترجمين رسموا الاسم في صورة المئة ــ المائة (متخيلين الاسم رقماً) بينما الضبط الصحيح له هو: المأه (بمعنى الماء والهاء الأخيرة حرف صوتي مثل يهريق الماء في يريق الماء) وفي التثنية المأوان أو الماوان بإسقاط الهمزة للتخفيف. وهي مياه على مقربة من جبل غنم ويا للمصادفة. وما إن شرع الكاهن في إطلاق إشارات البناء الأولى، حتى سارعت إلى المشاركة قبائل عدّة تسجل التوراة أسماءها بدقة متناهية وهي:

قبيلة **بنو عمري** وعلى رأسهم زكريا زعيمهم وكاهنهم. وهؤلاء ساهموا في بناء جزء من السور في مجدل ــ وها ــ مأه. ثم قبيلة **بنو شنأه** ــ شنوءة[٢] التي تولت ترميم الجزء الممتد من جبل شعر ــ ها ــ دجيم (الدجوج). وفي هذا الإطار كافأ المترجمون الاسم (دجيم) بـ(باب الحوت) مفترضين أن الأمر يتعلق بالكلمة العبرية دج بمعنى حوت، سمك[٣] بينما المقصود موضع الدج طِبقاً للرسم العبري، كما أن اسم هذه الجماعة في الضبط العربي الصحيح هو شنوءة وليس شنأه، وهؤلاء يعرفون في التاريخ اليمني والعربي القديم بأنهم أزد شنوءة ــ أسد شنوءة. وبينما كانت

(٢) هل يمكن لعاقل أن يهمل هذا الاسم: أزد شنوءة؟ هؤلاء قبيلة شهيرة من قبائل اليمن وهم بنو أسد الذين ورد اسمهم في النقوش والسجلات التاريخية في صورة ملك لأسد: ملك الأزد ــ أزد شنوءة.

(٣) سبق لهؤلاء المترجمين أن ترجموا الكلمة نفسها (دجيم) وفي مكان آخر وسياق مختلف ولوظيفة مختلفة في صورة (باب السمك) والآن أصبح لدينا مكان ملفّق جديد يدعى باب الحوت.

أعمال الترميم مستمرة، دخلت جماعات أخرى منهم **بنو الفرص** (الفرض ـ الفارض) **ومشلم بن بركيه** ـ السلم بن برخيا ومعهم أفراد من **التقوعيين** ـ من مكان يدعى تقوع ـ قوع (والتاء حرف لاصق مثل تعرم في عرم) **وبنو بعته** ـ بعثه (قارن مع اسم البعيث الشاعر) ليتخذ ترميم الأسوار عندئذٍ، مساراً جديداً في موضع يسميه النص التوراتي (صورم) في وادي عبدت ـ عبيدة.

سنتوقف هنا قليلاً لإثارة مسألة تبدو شائكة في النص العبري؛ إذ وقف المترجمون حائرين أمام بعض الكلمات في النص الخاص بتوصيف أعمال الترميم، ولذا قدموا ترجمة محيرة أكثر غموضاً من النص. يقول نحميا: ٢: ١١: ٣: ٨ ما يلي:

وعله ـ يدم ـ ها ـ حزيقو ـ ها ـ تقوعيم ـ
وءديريهم ـ لء ـ ها ـ بيئو ـ صورم ـ ب ـ
عبدت ـ ءدنيهم

وهنا الترجمة كما قدمها النص العربي من نحميا: ٢: ٢٠: ٣: ١٦.

(وبجانبهم رمّم التقوعيون، إلا أن أشرافهم لم يحنوا أعناقهم لخدمة أسيادهم)

لا تبدو هذه الجملة مفهومة؛ وهي مصوغة بلغة عربية فقيرة الدلالات. في الحقيقة لم يكن هناك أسياد وعبيد في عمليات البناء، خصوصاً أننا نتحدث عن مدينة مقدسة تنهض الجماعة الدينية، بعد خلافات مريرة في ما بينها، بعبء إصلاح أسوارها المهدمة. لا يتطلب الأمر أبداً أن تُحنى الأعناق ولا أن يخدمَ الأسياد.

كل ما في الأمر أن رجالاً من تقوع ـ قوع، شاركوا في أعمال الترميم من موضع يدعى صورم ـ صرم في وادي عبدت ـ عبيدة. والجملة لهذا السبب تقول ببساطة ما يلي:

وعلى أيديهم تمّ البناء. وحوّط التقوعيون أساساتها حتى صورم في ـ وادي ـ عبيدة.

إن كلمة ءدنيهم لا تعني السادة ـ من أدون العبرية ـ بل تعني أيضاً: الأساس والقاعدة. وعلى العموم لا تشير كلمة عبدت إلى خدمة أو عمل، وإنما إلى اسم وادٍ شهير هو وادي عبيدة ـ عبدت الذي تصب فيه مياه سلوه قرب مأرب إلى جوار وادي نُهية ـ نهيه. ومثلما ورد في وصف الهمداني (**صفة**: ١٥٣) فإن الحرجة تؤدي إلى **وادي نهية** في طرف صيهد (وحزمة البشريين هي التي تسمى **سلوه في وادي عبيدة** وفيها آثار عِظام: محقق **صفة جزيرة العرب**). وعندما امتدت أعمال الترميم إلى وادي مَوْر (مور بالضبط وتماماً كما في سفر التكوين) عند مسيل صرايم ـ صورم، دخلت جماعات قبلية أخرى ساهمت في تحسين المداخل. وهؤلاء كانوا على التوالي: من بني فاسح الذين تلقوا مساعدة من ملطيه من بني جبعون، ومن أهل الصفاة ـ ها ـ مصفه، ومن بني حارقهيم[٤]. والاسم الأخير (حارقيهم) كان مثيراً للحيرة بالنسبة للمترجمين. ولذا قدموا مكافئاً غريباً هو: الصّاغة. وهكذا أصبح لدينا، فضلاً عن الأماكن الملفقة مثل بيت السمك وبيت الحوت

(٤) الحارق، والميم أداة التعريف المنقرضة هنا. أما الهاء الوسطية فهي حرف صوتي أسقطه تطور اللغة العربية مثل: يهريق الماء: يريق الماء. ومثل بهنسو التي يستخدمها الحضرميون سكان حضرموت بمعنى: ابنه. وهي لهجة معروفة عند القبائل العربية تعرف بلهجة السين ولهجة الهاء.

وبيت الزبل، وجماعات لا وجود لها مثل البوابين (شعرائيم) ها هنا جماعة أخرى جرى تلفيقها ولا وجود لها في التاريخ دعيت باسم (الصاغة) بينما الضبط الصحيح للاسم هو الحارق، والهاء في الاسم مشابهة للهاء في بعض الأسماء، مثل: شمر يهرعش في يرعش (أحد أهم ملوك نجران). أما الميم فهي أداة التعريف (أو الجمع الحميرية ـ اليمنية). وإلى جانب هؤلاء شارك رجال من بني حور، ومن بني خرومف[٥] ـ مخارف. كما ساعدهم بنو حشوب الذين رمموا الأسوار حتى وادي تنوريم ـ نوريم. وإلى جوار هؤلاء أيضاً، كانت هناك جماعة قبلية أخرى يسميها النص التوراتي بنو لوحش[٦] ـ الوحش. أما مداخل الوادي فتولّتها قبيلة زنوح حيث امتدت الأعمال، عندئذٍ باتجاه منطقة الجوف اليمني عند جبل أنف ـ ألف، بمعونة من بني ركاب الذين يقيمون في منطقة الكرم.

أما **وادي عيان** فقد بنت الأسوار فيه قبائل من الصفاه (ها ـ مصفه) وهي التي رممت السور عند مياه سلوه، وفي وادي جن ـ جنة وجبل ها ـ ملك (جبل المالك).

في إطار هذا العرض الموجز، يتضح أن فلسطين لا تعرف أي اسم من أسماء القبائل الواردة في الخبر التاريخي عن بناء أسوار أورشليم وإصلاح أبوابها العتيقة المحطمة في السراة اليمنية. وليس ثمة ما يدل على وجود بقايا لغوية أو جغرافية في مدينة القدس العربية، تشير إلى مواطن هذه الجماعات والقبائل. ومع ذلك لا تزال القراءة

---

(٥) لاحظ استعمال الميم في الاسم. لقد أصبحت ميماً وسطية لكن وظيفتها ظلت كما هي: أداة تعريف: خرومف: مخارف ـ المخارف.

(٦) كما في النقوش اليمنية: ملك لأسد: ملك الأسد، مرله: أمره الله، وهبله: وهب الله، عبدله: عبد الله.

الاستشراقية السائدة للتوراة تفرض رؤيتها على التاريخ الفلسطيني القديم، بإصرارها على أن هذا الحدث وقع في فلسطين. ومن أجل ذلك سوف نعطي أسماء هذه الجماعات والقبائل ومواطنها الحقيقية. هاكم قائمة بالأسماء كما وردت في النص العبري ومعها الضبط العربي.

قائمة بأسماء القبائل المشاركة في بناء أسوار أورشليم

الاسم في العبرية	الضبط العربي
1: ء مري	المر
2: شنئه	شنوءة
3: حشوب	حشُب
4: حور	حور
5: حارقيهم	الحارق
6: خارومف	المخاريف
7: لوحش	الوحش
8: ركاب	ركب
9: زنوح	زانح

تحليل القائمة

عندما بدأت أعمال الترميم وإعادة البناء في أسوار أورشليم، ابتداء من جبل غنم إلى الغرب من صَعْدَة سارعت بقية القبائل إلى

المشاركة. ومن بين أهم هذه القبائل تلك التي يسميها نحميا: بنو ـ شنئه (بنو شُنئُه). فمنْ يكون هؤلاء؟ في الواقع ليس هؤلاء سوى القبيلة اليمنية الشهيرة شنوءة، وهم قبائل من الأزد ـ الأسد القوية. والهمداني على طريقته في الاعتزاز بنسبه اليمني، ينقل قصيدة لشاعر غير معروف (**صفة**: ٣٢٦) يصف فيها أزد ـ شنوءة:

وبعدَ شنوءة الأبطال أضحتْ بيوتهم تُرفع بالعمادِ

وأزد شنوءة من القبائل اليمنية الكبرى والقديمة التي أقامت في سرو مَذحْج، وعرفت بعظمة بيوتها ومبانيها وهياكلها التي أقامتها في الجبال؛ ويزعم النسابون أن اسمهم جاء من الشنأة، أي: البغضاء التي وقعت بينهم، وكانوا على دين اليهودية. قال الشاعر (**صفة**: ١٧٩):

ونحن قتلنا الأزد أزد شنوءة فما شربت بعداً على لذةٍ خمرا

وهاكم وصف جبل غنم إلى الغرب من صَعْدَة (وإلى الجوار منه بنو زارح وهم عند الهمداني ومحققه: بنو رازح ـ بتقديم وتأخير حرف الراء وهي لهجة تقوم على القلب والإبدال). وجبل غنم هذا على مقربة من صرايم وعليان ـ عليون والخارف. يقول الهمداني (**صفة**: ١٢٨ ـ ١٣٢):

> فمنقل **سفران**، فبلد حرب ـ بن وادعة ـ وهم بنو **صريم وبني عبد**، وغورها **أخرف** وبلد حيران، **وقبر عليان** ووادي **أمير**، **فغنم** ومران وعرامى (ويقع في بلد بني عمر من رازح:

> المحقق) **وبلد الركب** فيلتقي هو ونخلة جنوبي زبيد (..) ويضمها سيل نعمان ثم تنحدر كلها في **بلد الوحش**.

ها هنا منازل القبائل ذاتها التي شاركت عند نحميا في أعمال البناء: بنو عبدت ـ عبد[٧] وصورم ـ صرايم وبنو لوحش ـ الوحش. فضلاً عن جبل غنم وبلد الركب الذي جاء منه بنو ركاب ـ ركب. وإلى الجوار سلسلة من الجبال والأودية التي سبق لنا تحديدها. في هذا السياق سنتوقف ـ مرة أخرى ـ أمام اسم القبيلة لوحش ـ الوحش التي شارك أبناؤها في أعمال البناء. هاكم وصف الهمداني وتحديده الدقيق لحدود بلد الوحش وسكانه (**صفة**: ١٩٩ ـ ٢٠٠):

> ووادي **النهي** (..) **والوحش من بلد حاشد** ما بين نعمان وبلد الكلاع (..) **ومخلاف العود**.

يعني هذا، وببساطة ووضوح أن القبائل العربية اليهودية في السراة اليمنية وليس في فلسطين، هي التي قامت بترميم وإعادة بناء أسوار أورشليم في مكان تعرفه جيداً ويخصها في الصميم. وها هي السراة تحتفظ بأسماء هذه الجماعات ببلداتها وقراها وأوديتها، تماماً كما في وصف نحميا ومن دون أدنى تلاعب لغوي من جانبنا. أما **المخاريف ـــ خارومف** ـ ولاحظ دخول الميم المنقرضة على الاسم ـ فإنهم يقيمون في المكان نفسه (**صفة** ١٣٢ ـ ١٣٦). هذا هو الفضاء الجغرافي المتكامل الذي جمع القبائل والوديان

---

(٧) زيادة التاء لهجة يمنية: قريش: قرشت، فلس: فلست.

والجبال في وحدة نادرة، يستحيل العثور على ما يماثلها في جغرافية فلسطين.. وهذه التفاصيل توضح العلاقة بين وجود أسماء القبائل المشاركة في البناء وبين المواطن والمواضع التي أقامت فيها وشملها الترميم؛ فسكان بلد لوحش ـ الوحش، مثلاً، والذين يُقيمون على مقربة من بيت بوس، شاركوا الجماعات الأخرى في المخاريف وفي وادي عيان ـ عين، وصورم ـ صرايم، وبلد بني عبد ـ عبدت وهم سكان الوادي المجاور. لقد هرعت القبائل العربية اليهودية من معظم مخاليف السراة اليمنية؛ من عدن والكلاع وأبين وصنعاء وسواها، لتشارك في بناء أسوار أورشليم اليمنية التي دمرها الآشوريون. وهذه هي الحقيقة التاريخية التي تنطق بها نصوص التوراة عن قبائلنا وقرانا ومدننا وجبالنا. ولأن التوراة كما قلنا، كتاب ديني من كتب يهود اليمن، سجلوا فيه تجربتهم التاريخية والدينية؛ فمن المنطقي أن لا تكون لفلسطين أدنى صلة بهذه التجربة، وذلك هو السرّ في فشل اليهود المعاصرين في العثور على أي مكان أو موضع أو اسم قبيلة مما ورد في الأسفار الدينية المعتمدة.

الفصل الرابع

صورة الفلسطيني في التوراة

– 1 –

لأجل فهمٍ أعمقَ لمضمونِ الصور النمطية التي أنتجها المخيال الغربي (الاستشراقي) عن الفلسطينيين في التوراة، سأقوم ابتداءً، بعرض بعض المقاطع من سِفر صموئيل الأول (٤: ٥: ١٢: ٤ ـ النص العربي) و(١١: ٦: ٩: ٥ ـ النص العبري) حيث ترد الرواية التالية التي نجد ما يؤيدها في الإخباريات العربية الكلاسيكية (**الطبري، اليعقوبي، المسعودي**):

النص العبري

وها ـ فلشتيم ـ لقحو ـ ءت ـ ء رون ـ ها ـ ءلهيم ـ
ويبء و ـ م ـ ء بن ـ ها ـ عزر ـ ء شدوده ـ ويقحو ـ
فلشتيم ـ ء ت ـ ء رون ـ ها ـ ء لهيم ـ ويبء و ـ ء تو ـ بيت ـ دجون ـ

وهذا النص يقول ما يلي:

والفلستيّون أخذوا تابوت الرّب ومضوا به من (أوبن
العيزار) إلى (شدد). ثم أخذ الفلستيّون تابوت الرّب
وأدخلوه إلى (بيت دجون).

يُفهم من هذه الرواية التي سوف تتكرر، أن بني إسرائيل اصطدموا بجماعة تدعى «الفلستيين» نسبة إلى مكان بعينه يدعى فَلس (والتاء الأخيرة لاصقة وردت في نقوش العرب مثل قريش ـ قرشت، فرس ـ فرست)، وأن هؤلاء خاضوا أولى معاركهم وتمكنوا من الاستيلاء على تابوت العهد في موضع آخر بعينه يدعى أوبن العيزار، وفي الترجمة العربية (أبان) والصحيح (أوبن) كما هو واضح من التهجئة بالعبرية. وفي الواقع لا وجود لفلس أو أوبن أو أبان إلى جوار بعضها البعض في فلسطين التاريخية مهما فتشنا هناك؛ بينما نعلم من الهمداني في **صفة جزيرة العرب** والشعر الجاهلي كذلك، أن جبل أبان من أشهر جبال العرب وأقدمها، وهو يقع بالفعل على مقربة مباشرة من أشهر بيوت العبادة الوثنيّة عند القبائل العربية «**بيت الفلس**»، وكان موضعاً جبلياً يتبع قبيلة طي اليمنية غير بعيد عن جبلي سلمى ولبنان. كما نعلم من الشعر الجاهلي فقد كان مسرحاً لمعارك القبائل.

ويُحدّد بيت للبحتري جبل أبان هذا تحديداً دقيقاً للغاية، قال:

ولـمّا غربت أعراف سلمى   لـهنَّ وشـرّقت قـنن الـقـنـانِ

وخـلـفـنـا أيـاسـرَ وارداتٍ   جـنـوحـاً والأيـامـن مـن أبـانِ

ومن الواضح أن جبل سلمى ـ وجبلي لبنان كذلك ـ هي مرتفعات على مقربة من **جبل أبان**، إذْ يمكن للسائر أن يصل إلى الشمال من موضع واردات، قبل أن يتجه إلى الجنوب ويصبح في قلب وادي الرمة. إن مثل هذا الفضاء الجغرافي لا وجود له في فلسطين، فليس ثمة **سلمى** يمكن بلوغها إذا ما سرنا في الشمال الفلسطيني من موضع واردات، ثم حين ننعطف إلى الجنوب باتجاه **أبان**. ولعل تحديداً جغرافياً من هذا الطراز، يتلاءم وينسجم بصورة مدهشة مع الإطار التاريخي للمعارك التي دارت بين القبائل العربية الوثنية واليهودية في طفولتها البعيدة والتي تعرف في كتب التراث بـ **أيام العرب**، وهي وقْعاتهم وحروبهم وغزواتهم، ففي هذا المكان تتزاحم القبائل بالمناكب، بسبب سلسلة من التوترات والتفجرات الدينية والاجتماعية. وفضلاً عن ذلك، ترك لنا أبو تمّام أبياتاً رائعة من الشعر عن هذه الحروب الشرسة التي دارت في المكان نفسه الذي تتحدث عنه نصوص التوراة. وهذا أمر مثير وجدير باهتمام مؤرخي الأدب العربي القديم. والأبيات التالية محض استطراد في ذكريات العرب التي ظلت تلازمهم عن المعارك في سفوح **أبان**:

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم ... أن الدمَ المغترَّ يحرسه الدم

ولقد جهدتم أن تزيلوا عزه ... فإذا أبانٌ قد رسَا ويلملم

تَرسم هذه المقتطفات الشعرية صورة مماثلة للصورة التوراتية عن معارك طاحنة بين القبائل، لا وجود لما يماثلها في فلسطين القديمة. وكنا أشرنا إلى المكان الذي بُني فيه معبد «**الإله فلس**» معبود العرب القديم، فهو إلى جوار لبنان وسلمى التي تعد من جبال بلاد طي. ولذا؛ فإنَّ المعارك الدائرة عند **سفوح أبان** بين بني

إسرائيل والفلستيين (ها ـ فلشتيم) لم تنشب في فلسطين؛ بل دارت في هذا الفضاء الجغرافي الذي كان موطن قبائل وثنية، كانت على موعد مع فجر ديانة عربية توحيدية. وبالتالي؛ فإنَّ الفلسطينيين لم يكونوا طرفاً فيها، والزّج باسمهم في «قلب تاريخ زائف» من تلفيق مخيّلة أوروبية، لا غرض له سوى إخراجهم من التاريخ الحقيقي بعد زحزحتهم من الجغرافيا، وذلك عبر تصويرهم كأحفاد لجماعات مهزومة أمام بني إسرائيل، ليس في العام ١٩٤٨ للميلاد وإنما في العام ٩٤٨ ق.م. إن «طرد» جماعة بشرية معاصرة من تاريخها الحقيقي، وتلطيخ سمعتها بهزائم لم تقع لها؛ بل و«حجزها داخل تاريخ ملفق» أمر يندرج في سياق تجريد السكان الأصليين الذين سلبت أرضهم مع بزوغ العصر الاستعماري، من كل ما يملكون من مقومات حياتية وعناصر ثقافية وتاريخ قديم، وتصويرهم كأحفادٍ لأشرار قدامى اغتصبوا تابوت العهد ذات يوم بعيد، فاستحقوا الهزيمة بسبب ذلك. وفي الإطار نفسه، فهو يندرج في قلب استراتيجيات القراءة الاستعمارية للتوراة. فهل تعرف فلسطين جبلاً يدعى أبان كما في النصوص التوراتية المتفرقة؟ في الواقع، يعدّ **جبل أبان من أشهر جبال العرب**، ولا نظير لاسمه المتفرّد في أيّ بقعة أو مكان خارج جغرافية بلاد العرب، وقد عرفته القبائل ضمن ما يعرف ببلاد طيّ القبيلة اليمنية (ولاحظ التماثل في الصيغة: بلاد اليهودية، بلاد طي... إلخ). ومن غير أدنى شكّ؛ فإنَّ وجود الفلسطينيين قرب جبل أبان في فلسطين، كما توحي بذلك القراءة المخيالية الغربية، لا أساس له في الجغرافيا وهو تلفيق يقوم على تصعيد الصور النمطية إلى مصاف حقائق التاريخ. والمثير للاهتمام أن أحداً لم يتساءل عن السبب الذي يدعو محرر النص العبري إلى كتابة الاسم على هذا النحو **فلشتيم** ـ بالتاء وليس

بحرف الطاء ـ إذا ما كان يقصد الفلسطينيين، لأن العبرية تعرف حرف الطاء ولا موجب للاستعاضة عنه بحرف آخر؟ لقد توجب على محرر النصّ العبري ـ إذا ما كان يريد كتابة الاسم بشكل صحيح ـ أن يرسمه في صورة **ها ـ فلسطيم** ليصبح المقصود منه عندئذٍ (**الفلسطينيين**) بالفعل، بينما يتعيّن علينا معاملة هذه الصيغة وطبقاً للتهجئة الصحيحة على أن المقصود منها (**الفلستيين ـ أو الفلست أو الفلسة أي عبّاد الإله الفلس**). كما أن أحداً لم يسأل عن السبب وراء تجاهل الجغرافيين اليونانيين الكلاسيكيين ـ الذين سجلوا بدقة مذهلة أسماء الجماعات والشعوب والمواضع في الجزيرة العربية واليمن ـ لوجود شعب باسم الفلسطينيين قرب أبان، إذا ما وجد مثل هذا الشعب هناك؟ في الواقع لم يعرف العرب ورحّالة اليونان وشعراء الجاهلية، جماعة فلسطينية قرب جبل أبان هذا؛ ولكن بالمقابل، سجّل العرب في أشعارهم ومروياتهم اسم شعب عربي وثني قديم عاش بالفعل في المكان نفسه، وعُرِفَ نسبة إلى بيت العبادة الوثنية (فلس ـ الفلست) وتماماً كما في نصوص التوراة. وفي الكتابة اليمنية القديمة يمكن أن يكتب الاسم على هذا النحو: **فلس، فلست، مثل قرشت في قريش والجمع في العبرية (فلشتيم)**. إن هذا الرسم يتطابق مع رسم الاسم في التوراة، بما يعني أنها قصدت الجماعة نفسها وليس الفلسطينيين. وذلك ما يفسر لنا السبب الحقيقي لرسمه في العبرية بحرف التاء وليس بالطاء. لقد تمّت مطابقة ماكرة، ومُماثَلةٌ مختَرِفة بين الاسمين في سياق تزييف التاريخ القديم برمته. وفي نطاق هذه المسألة، سنرى كذلك، أن سكان الموضع نفسه اشتهروا في **المرويات العربية القديمة وفي التوراة**، بأنهم من **آكلي السحت** أي الحرام، وكانوا يصطدمون مع الجماعات الموحّدة والمتدينة في الجاهلية البعيدة على خلفية قيامهم بسرقة

المواشي وضمّها إلى بيت الفلس، كما أنهم تصرّفوا كقطّاع طرق في سياق محاولاتهم تأمين النذور والذبائح للمعبد. وكل هذا يدعونا إلى التساؤل: ترى، لماذا تطلق التوراة على فلشتيم الصفة العبرية **ها ـ مشحت** التي نرى أنها تعني الكلمة العربية ذاتها **السحت**، بمعاملة الميم كأداة تعريف منقرضة في لهجات اليمن القديم؟ ومن غير شك؛ فإن هذا اللقب «التحقيري» الذي تطلقه التوراة بحق جماعة وثنية، أمر ينسجم مع تاريخ الحروب والمعارك بين الموحدين والوثنيين. إن هذه المطابقة المخادعة والتي لا أصل لها في التاريخ، تندرج في سياق السيطرة على السرد التاريخي لأحداث الماضي واستغلالِهِ في الصراع الراهن على الأرض، عبر فرض استمرارية زائفة ومختَلقة لما اعتبر أحداثاً تاريخية؛ وبحيث تبدو إسرائيل الراهنة استكمالاً معنوياً ما فوق رمزيّاً، متَخيلاً بكل قوة وزخم التخيل الأدبي لمملكة إسرائيل ولبني إسرائيل، بينما يبدو الفلسطينيون في الطرف المقابل، استطراداً رمزياً مقلصاً ومضغوطاً إلى أبعد حدّ في صورة جماعة مغلوبة ومهزومة، جرى دحرها في سفح جبل أبان قبل آلاف السنين. إنهم الفلشتيم الذين أمكن انتزاع تابوت الله من بين أيديهم وإزاحتهم عن الأرض الموعودة. إليكم وصف الهمداني وشهادته الحاسمة عن جبل أبان (**صفة**: ٢٣٥ ـ ٢٣٦) في معرض وصفه للطريق من جُرَش إلى صَعْدَة (وليس جرش الأردن كما نزعم الرواية الاستشراقية، ولنلاحظ أن سائر الأماكن السابقة التي وصفتها التوراة كانت قربَ صعْدة):

وصف الهمداني لجبل أبان

تخرج من جُرش قصد صَعدة على **بلد جنب** (..) ديار
ربيعة: الذنائب ووارادات وذو **حسم** (..) **وأبان.**

ها هنا، بالضبط يقع جبل أبان التوراتي ـ اليمني على الطريق من سراة جنب. أمّا ابن منظور فيكتب في وصف أبان ما يلي (**لسان:** ٩: ١٦٦ ـ ١٦٧):

وصف ابن منظور (لسان العرب)

أبان: أبانان جبلان في البادية أحدهما أسود
والآخر أبيض وبينهما نهر يُقال له الرُّمَّة على
مبعدة ثلاثة أميال.

يشير ابن منظور في هذا الوصف إلى وادي الرّمّة الشهير، ويستخدم كلمة (نهر) في وصف مياه الوادي على جري عادة العرب، تماماً كما في التوراة التي تستخدم الكلمة في معرض الإشارة إلى الوادي. يقع الجبل في بطن وادي الرّمّة، وهو من أعظم الأودية وأكبرها وفيه قالت العرب: الرمة: طويل عريض، والطريق منها يفضي إلى صعْدة ثم ذمار. وذمار هذه، هي التي عرفت قديماً عند اليمنيين باسم الأب الأعلى لبعض قبائل اليمن (**شدد**) بن زرعة بن حمير الأصغر (ومن أحفاده الملك اليهودي ذو نواس الحميري صاحب الأخدود). وبذلك يتضح أن المقصود

من رواية سفر صموئيل هو التالي: قامت جماعة وثنية تُدعى الفلسة (ها ـ فلشتيم) بنقل تابوت الرّب من جبل أبان، حيث دارت المعارك مع بني إسرائيل وامتدّت إلى **شدد أو سدد**، تماماً كما في النص العبري، وليس إلى أشدود الفلسطينية الساحلية. لقد ترك لنا العرب القدماء سلسلة من الروايات عن معارك طاحنة بين **بني إسرائيل وقبائل معد**، وهي روايات موثقة يصعب التشكيك في صحتها. الأمر الذي يؤكد أن مروية صموئيل هي في سياق مرويات العرب القدماء ولا تشذ عنها. وفي هذا النطاق، سيبدو الفضاء الجغرافي الذي يجمع كلاً من **جبل أبان وشدد فضاء يمنياً لا فلسطينياً**، حيث جبال سلمى ولبنان ولبنى وشحر، وسائر المنازل الواردة في نصوص يشوع وصموئيل. قال لبيد واصفاً جبل أبان في بطن وادي الرّمّة (أنظر **ياقوت**: ٨٢: ١ـ وكذلك **البكري**):

دَرَسَ المنا بمتالعٍ وأبانِ فتقادمت بالحبسِ فالسّوبانِ

وقال امرؤ القيس (المعلّقة **والديوان** ـ وانظر شرح **المعلّقات السبع** للأنباري):

كأنَّ أباناً في أفانين وَبلْهِ كبير أناسٍ في بجادٍ مزملِ

هذا التوصيف المهذّب والمدهش للجبل والذي قلما يجد المرء ما يماثله، يشير إلى شموخ الجبل وجماله في لحظة هطول المطر والثلوج في أعلى قمته، حيث يبدو للناظر مثل شيخ مَهيب مزَّملٍ بكساء بدوي مخطط من أكسية الأعراب. ولنلاحظ هنا استخدام الشاعر للكلمة العبرية ـ العربية القديمة (**بجاد**) والتي ترد في التوراة

كتوصيف لثياب يوسف (تعني **بجد العبرية: ثوباً أو رداء مخططاً**. وحتى اليوم يمكننا ملاحظة أن طقوس الصلاة اليهودية تستلزم وضع الرداء المخطط). وبالطبع لا تعرف فلسطين التاريخية جبلاً بمثل هذه المهابة وبمثل هذا الاسم. فهل هناك ما يدعو إلى الافتراض أنه جبل آخر غير المقصود في أشعار العرب؟ سنقوم بمقاربة أخرى، بين وصف صموئيل للمكان ووصف الإخباريين العرب والشعر الجاهلي، وذلك من أجل إعادة بناء المرويات التوراتية؛ وبالتالي إعادة بناء الرواية التاريخية عن معارك بني إسرائيل. وسنلاحظ أن قصص سفر صموئيل تشير إلى أن النبيّ خرج من بيته في **ها ـ رمه: الرما، ثم توجه نحو جبل ءبن ـ ها ـ عيزر**. ونحن بكل تأكيد لا نعرف الرما أو الرَّمة هذه قرب أوبن أو أبان في فلسطين؟ ولكننا نعرف من وصف الهمداني، أن السائر في أرض اليمن من **جبل الرما** (ها ـ رمه) **يصل وادي اوبن** (ءبن في العبرية) بسهولة تامة. كما نعلم من رواية الأصمعي التي نقلها ياقوت (١:٨٣) أن السائر في بطن **وادي الرَّمَّة يصل إلى جبل أبان**، إذا ما اتجه صوب صعدة اليمنية. قال ياقوت:

وصف ياقوت الحموي نقلاً عن الأصمعي

قال الأصمعي: **وادي الرَّمَّة يمرّ بين أبانين**
وهما جبلان، يقال لأحدهما (أبان الأبيض) ـ وللآخر ـ (أبان
الأسود) جبل لبني فزارة خاصة، وبينه وبين الأبيض
ميلان

وإذاً: إذا كان المقصود من (ءبن) في نص التوراة الجبل أبان، فهذا الجبل في وادي الرمة في قلب الجزيرة العربية وليس في أي مكان آخر. أما إذا كان المقصود من (ءبن) وادي أوبن، فهو بكل تأكيد في الجوف اليمني حيث تسيل مياه واديه إلى نجران. وفي الحالتين ليس ثمة جغرافيا فلسطينية. إن إشارة رواية سفر صموئيل إلى جبل (ءبن) تحتمل فكرة أن المقصود منه وادي وجبل (أوبن) في الجوف اليمني، حيث يمكن للسائر فيه أن يبلغ ـ بسهولة ـ جبل الرما. كما تحتمل في الآن ذاته، فكرة موازية، أي (جبل أبان) وكلاهما في فضاء جغرافي واحد. وبذلك يمكننا أن نضع ـ في هذا المكان وليس في أي مكان آخر ـ كل المعارك التي دارت بين بني إسرائيل والفلستيين حول تابوت العهد. فكيف نظرت القراءة التوراتية الراهنة (الاستشراقية) إلى الفلسطينيين؟ إن فهماً أعمق للصور النمطيّة في المخيال اليهودي عن الفلسطينيين المعاصرين، يجب أن يلاحظ ما يلي: بما أن إسرائيل الراهنة، هي امتداد تاريخي لما يزعم أنها مملكة إسرائيل القديمة في فلسطين، فقد تمّ غرس جذور «اصطناعية» للصراع التاريخي، راحت تضرب عميقاً في تربة الأحداث التي عاشها شاول وداود والنبيّ صموئيل، وهو صراع مستمر لا بسبب مشكلة الاحتلال الراهن وحسب؛ وإنما كذلك بسبب وجود عدو قديم يواصل حربه ضد «ولادة إسرائيل الإلهية» المقدّسة. إن سفر صموئيل في نطاق هذه الفكرة، نموذجيّ بالنسبة للمخيال اليهودي الغربي؛ فهو يرسم صورة هذا العدو كما بزغت في عصر شاول، أول ملوك إسرائيل القديمة. ولكن: هل وقعت هذه الأحداث في فلسطين؟ وهل كان العدو هو الفلسطينيّ نفسه؟ إن تفكيك الجغرافيا الخيالية التي رسمتها القراءة الاستعمارية للتوراة، والكشف عن حقيقة المواضع المذكورة في الأسفار، من شأنه أن يمهد السبيل أمام إعادة بناء الرواية

التاريخية. بكلام آخر: يتوجب تفكيك بنى السيطرة على السرد الجغرافي من أجل تمكين الضحايا من رواية الأحداث بصوتهم لا بصوت جلاديهم. لقد رأينا ـ ممّا سبق ـ أن المكان الذي دارت فيه المعارك بين بني إسرائيل وها ـ فلشتيم هو جبل أبان أو ء وبن، ولذلك لا مناص من رؤيته خارج جغرافية فلسطين. بهذا المعنى تصبح مهمة البحث عن المواضع وتحديدها بصورة دقيقة من دون أدنى تلاعب لغوي، عملاً حاسماً في نطاق تقديم رواية جديدة لا تستند إلى الافتراضات.

لقد نقل لنا رواة الأخبار القدماء، ورواة أشعار العرب كذلك، اسم الإله العربي الفَلَس معبود قبيلة طي البدوية. ومن جملة هذه الأخبار نعلم أن بيت العبادة هذا، كان وسط جبل أجأ وقرب سُلمى؛ وهذا أمرٌ مدهش للغاية لأنه سوف يساعد في فهم مقاصد النصوص التوراتية من تسجيل اسم الجماعة التي دخل بنو إسرائيل في حروب معها أي الفلست. يقول ابن الكلبي (**الأصنام**: ٥٩) ما يلي:

وصف ابن الكلبي للفلست (**كتاب الأصنام** ـ ص: ٥٩)

كان **لطيء** صنمٌ يقال له **الفَلس** وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم أجأ. **كأنَّه تمثال إنسان** وكانوا يعبدونه **ويهدون إليه ويَعْترون عنده عتائرهم**. ولا يأتيه خائف إلّا أمنَ عنده **ولا يَطْرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلّا تركت**.

إن ملاحظات ابن الكلبي الثمينة والنموذجيّة إلى أبعد حدّ، ومعرفته المباشرة بالمكان والمعبود والسكان، تزود متلقّيها بأفكار ضرورية لفهم أفضل وأكثر جذرية عن طبيعة هذه الديانة العتيقة من ديانات العرب، والأهم من ذلك، من أجل فهم أفضل لطبيعة ونمط معتقدات سكان المكان. ولنلاحظ عبارته الدقيقة القائلة: (ولا يأتيه خائف إلّا أمِنَ عنده) فهذه إشارة صريحة إلى شمولية نظام التحريم ورسوخ ثقافة منح الحماية والملجأ لكل مطارَد. بهذا المعنى؛ فإنّ الفلس كان هو الآخر (ها ـ عيزر) أي: المكان المانع الذي يجير الخائف والمطارد، مثله مثل جبل أبان وسلمى. ومن غير شكّ؛ فإنّ وجود الفلس وسط جبل أجأ يعني أنه عُرِفَ باسم المعبود، أي جبل الفلس. ونحن نعلم من التاريخ وعلم الأنساب عند العرب، أن **القبائل تتسمّى بأسماء آلهتها وآبائها وتنتسب إليها**. ولذا، يبدو وجود جماعة قبلية قديمة تدعى **الفلس**، نسبة إلى معبودها وجبلها قرب جبل أبان، بمثابة تأكيد قاطع على وجود تاريخي حقيقي وليس مجرد افتراض. وفي هذه الحالة، سيكون اسم الجمع بالعبرية هو: **فلشتيم** (هر ـ فلشتيم: جبل الفلستيين). إن أحداً لا يعرف اسم جماعة قديمة في فلسطين كانت تعبد إلهاً يدعى فلس وتعيش قرب جبل أبان ـ بينما نستطيع رؤية المكان والجماعة القبلية بسهولة ودون ما حاجة للتلاعب بالكلمات أو أبنية الأسماء، وذلك حين نفتش جغرافية اليمن القديم والشعر الجاهلي. ونحن نعلم من تاريخ الإسلام المبكر، أن انتصار الإسلام ارتبط على نحو ما، بدحر سكان الفلس ـ وهم خليط من قبائل العرب ـ وتدمير بيت عبادته بعد حملة عسكرية ناجحة قادها خالد بن الوليد في السنة التاسعة للهجرة.

بهذا المعنى، يتوجب النظر إلى صراع بني إسرائيل ضد قبائل

الفلس على أنّه صراع دينيّ، نشب في وقت مبكر من ظهور الديانة التوحيدية في بني إسرائيل. لقد كانت قبائل الفلس تمثل مشكلة مستعصية بالنسبة لسائر القبائل العربية، وليس لبني إسرائيل وحدهم، إذ اتسم سلوكها بعدوانية فاضحة على أملاك الآخرين، بلغت في أحيان كثيرة حدّ الاستيلاء بالقوة على حيوانات القبائل التي ترعى قرب المكان، وضمّها إلى ممتلكات بيت العبادة. **وعندما هدم خالد بن الوليد بيت الفلس هذا، وجد أنواعاً من السيوف اليمنية الفاخرة في خزائن مليئة بالهدايا الأخرى.** إن هذه الحقائق التاريخية تفسر، وتكشف لنا في الآن ذاته، بعضاً مما تم تزويره من التاريخ الملتبس والمتلاعب به، ومن ذلك واقعة الاستيلاء على تابوت العهد التي سجلها سِفر صموئيل (شموءل). وهذا ما سوف نعالجه بالتفصيل عبر العودة إلى النص العبري الذي سجل الوقائع وأسماء الأماكن والجماعات المتحاربة وصفاتها. يقول النصّ العبري (٤: ١٣: ١٩: ٣ ـ الإصحاح ٤).

المقطع في اللغة العبرية
ويصء ـ يسرءيل ـ ل ـ قرءت ـ فلشتيم ـ ل ـ ملحمه ـ ويحنو ـ عد ـ ءبن ـ ها ـ عيزر ـ وفلشتيم ـ حنو ـ ب ـ ءفق.
الترجمة العربية
(وخرجَ بنو إسرائيل ودعوا الفُلْس للحرب، ثم خيموا عند
أوبن العيزار والفُلْس خيّموا في أفيق)

نعرف من هذا النصّ الواضح والبسيط، أن الجماعتين المتصادمتين التقتا بين جبلين، حيث أقامتا مخيمين حربييّن عند جبل أوبن (وادي أوبن) وفي (أفيق). وبكل تأكيد؛ فإنَّ جغرافية فلسطين التاريخية لا تعرف مثل هذا المكان، وليس ثمة من دليل جغرافي أو لغوي على وجود (أفيق) قرب جبلٍ أوبن في فلسطين. في الواقع يعرف شمال فلسطين جبلاً صغيراً يدعى أفق وليس (أفيق) وهو موضع بعيد للغاية عن المسرح الافتراضي للمعارك، فضلاً عن أن فلسطين كلها لا تعرف أوبن أو أبان. وحين اكتشفت القراءة الاستشراقية اسم هذا الجبل الفلسطيني، فقد سارعت إلى بناء الرواية التاريخية عن حرب خيالية ضد الفلسطينيين في عصر شاول. وبالطبع في سياق البرهنة على أن مملكة إسرائيل واجهت عند ولادتها الجديدة في العصر الاستعماري، العدو القديم نفسه. لقد كانت هذه واحدة من اللحظات الفظيعة في التزوير والتلاعب، اتسمت بتجاهل متعمّد للجغرافيا الحقيقية حيث كل المواضع الأخرى؛ بل هي قامت بإسقاطها وتجاهلها، فلا سلمى ولا أبان ولا لبنان هناك. وإذا ما تقبلنا هذه القراءة لأغراض السجال؛ فإنَّ رواية صموئيل ستبدو خيالية، متلعثمة وعصية على الأفهام، فهي تعرض علينا أسماء لا وجود لها في فلسطين؟ إن إقصاء اسم جبل أوبن من الرواية التاريخية التي سردها الصوت الكولونيالي نيابة عن الفلسطينيين؛ وسلسلة طويلة من أسماء الأماكن الأخرى، يمثل ذروة الخداع والتضليل. إليكم النصّ التالي من سِفر صموئيل الأول بترجمته العربية السائدة، ولنلاحظ الصورة النمطية للفلسطيني الذي ظهر في مسرح الحرب:

> وكان شاول ويوناتان ابنه ومَن معهما من الشعب، مقيمين في جبع بنيامين. والفلسطينيون معسكرين في مكماش. فخرج **المخربون** من معسكر الفلسطينيين ثلاث فرق. فاتجهت فرقة إلى عفرة في أرض شوعل، واتجهت فرقة أخرى نحو بيت حورون واتجهت فرقة أخرى نحو ءرس المشرف على وادي صبوعين ناحية البرية (صموئيل: ١٣: ٨: ٢٣)

ما يقوله هذا النص والنصّ السابق هو التالي: إن جبل (أوبن وجبل أفيق ـ مصنعة أفيق عند الهمداني وهي مكان غزير المياه) حيث تجمعت الجيوش المتحاربة، هما على مقربة من سلسلة من المواضع منها: جبع بن يامن (جبع بنيامين) ومكماش (مكماس) وعفرة من أرض شوعل وبيت حورون وء رس (الرس) ووادي صبوعين (ضباعين عند الهمداني). وكل هذه المواضع لا وجود لها في فلسطين التاريخية كما يعلم اليهود الغربيون والشرقيون. فكيف جرى تخييل رواية صموئيل وتحويل مسار أحداثها بحيث تجري في فلسطين؟ إن سائر المواضع الواردة في نص صموئيل موجودة إلى جوار بعضها البعض، وبالأسماء ذاتها تماماً دون أدنى تلاعب. وهذا واضح من سياق النصّ وتوصيفاته وبشهادة الشعر الجاهلي ووصف الإخباريين العرب ووصف الهمداني كذلك. إن جملة (واتجهت فرقة أخرى نحو ء **رس ـــ رسه**) مصمَّمة لتوصيف وتحديد موضع بعينه يدعى (**رسّه**) قرب (جبل الرما). لقد أضاف المترجمون هذا الاسم إلى النص العربي والعبري عن نص يوناني. ولأن محققي التوراة فهموا كلمة (ء رس) على أنها تعني (رأس، قمة) فقد ترجموا الكلمة في صورة (القمة) معتقدين أن سارد

النص، أراد بالكلمة الإشارة إلى قمة الجبل، وهذا وهم فظيع. وعلى العكس من هذا الاعتقاد الذي لا أساس له، سنبين أن صموئيل كان يشير إلى موضع محدّد هو (ريسه) في مسرح المعارك الدائرة. في الواقع، لا تعرف فلسطين التاريخية مثل هذا الموضع قرب وادي صبعيم (صبوعين) كما لا تعرفه على الطريق إلى (جبل ء بن ـ أوبن أو جبل أفيق). كل هذا يعني أن القراءة الاستشراقية للتوراة، بنزعتها الاستعمارية لتخييل فلسطين كوطن قديم لبني إسرائيل منذ عصر شاول، إنّما وجدت نفسها أمام مأزق حقيقي لا مخرج منه: فإذا كانت المعارك جرت حقاً ضد الفلسطينيين في فلسطين، فأين يمكننا أن نعثر على **الرما والريسه وصبوعين وأوبن وأفيق**؟ ولذا كان لا بد من تخيّل موضع ريسه، كتوصيف لحدود المسرح الحربي وإهمال بقية المواضع.

كما يستخدم النص العبري كلمة (**مشحت** ـ دون تصويت) وهي لقب تحقيري أضفي على الفلستيين الذين حاربوا بني إسرائيل. لكن المترجمين اختاروا من القاموس العبري ـ العربي ويا للغرابة، كلمة (**المخربون**) كمكافىء لها، ولتصبح الجملة على النحو التالي: (**واتجهت فرقة من المخربين الفلسطينيين**). وهكذا، فقد أصبح لدينا «مخربون فلسطينيون» من عصر شاول. إن هذا النعت المشبع بالمقت الغريزي وبالكراهية العنصرية التي لا تصدق؛ هو في القلب من عمل هادف إلى مماثلة الصور ودمجها، بحيث تتماهى صورة المخرب الفلسطيني المعاصر مع صورة نظيره وجدّه الأعلى «المخرب الفلسطيني في عصر شاول». هذا المخرب هو الذي سرق في الماضي تابوت العهد، وحارب مملكة إسرائيل القديمة. إنه بالنسبة للمخيال اليهودي الأوروبي الغربي ثم الأميركي، مخرّب بالفطرة، مزعج وخطير منذ أن تصادم شاول ملك إسرائيل الأول معه، وهو

يواصل لعب هذا الدور الوحيد الذي انتدبه التاريخ للقيام به إلى ما لا نهاية. وكما أن إسرائيل في هذه المُطابقات العشوائية والتعسفية، تمثل امتداداً نزيهاً وبطوليّاً في الماضي البعيد والمتخيّل؛ فإنَّ للفلسطينيِّين كذلك، امتداداً مماثلاً، ولكن كجماعة إرهابية تخريبيَّة عدوانية وغير نزيهة، وغير بطولية وقابلة بسبب طبيعتها التخريبيَّة المتأصلة في نفسها، لأن تنقسم إلى ثلاث «مجموعات تخريبية» أو أكثر تماماً كما هي الحال اليوم. إن هذه الصور الاستشراقية بامتياز، مأخوذة من الصورة النمطية في المخيال اليهودي الأوروبي الغربي ـ الأميركي المعاصر، ونظرته العنصرية للصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي. ولذلك؛ فإنَّ العودة إلى النص العبري سوف تكشف عن هذا البعد الاستعماري في القراءة الغربية للتوراة، إذْ لا وجود للفلسطينيين ولا وجود للمخربين في عصر شاول، والرواية التي يسجّلها صموئيل برمتها، لا علاقة لفلسطين بها. ومن المؤكد أن التعبير التحقيري (**مشحت بمعنى آكلي السحت**) الذي يطلقه صموئيل على قبائل الفلس ـ الفلست، يشير إلى الحقيقة التاريخية المؤكدة التالية:

إن بني إسرائيل كجماعة دينية موحِّدة، عرفتها قبائل العرب قديماً في السراة اليمنية؛ ثم مجّدها القرآن الكريم وأحاطها المسلمون حتى اليوم، بنظرات التمجيد والقدسيّة، هي جماعة لم تعترف بالأصنام قط، وقاومت عبادتها منذ عصر الأب الأعلى إبراهيم، والدها ووالد كل العرب ومؤسّس أولى الديانات التوحيدية في الجزيرة العربية وباني الكعبة. لقد كانت تنظر إلى عبّاد الأصنام نظرة احتقار وازدراء، ودخلت في معارك وحروب دامية ضدهم. وهذه المعارك يصفها السفر التوراتي بدقة، ونرى أنها تندرج في إطار حروب دينية الطابع ضد الجماعات الوثنية. ولأن الفلسة كانوا

أصحاب بيت عبادة وثني، تهفو إليه قلوب قبائل وثنية كثيرة، حتى أصبح من أكثر أماكن العبادة القديمة حضوراً في الحياة اليومية للجماعات القبلية؛ فقد عملوا على فرض سيطرتهم ونفوذهم انطلاقاً من سيطرتهم على المكان المقدّس هذا. وفي سياق فرض النفوذ، قام سدنة بيت الفلس بسن شرعة غريبة تبيح لهم حق الاستيلاء على حيوانات القبائل وممتلكاتها بالقوة وضمّها إلى بيت العبادة. ولذلك **عرف سدنة بيت الفلس عند العرب العاربة بأنهم من آكلي السحت**. كانت هذه الشرعَة الدينية حسب أخبار ابن الكلبي في (**الأصنام**) مصدر التوتر الرئيسي بين القبائل، وبعضها لم يخفِ مشاعر الاحتقار للسدنة (الكهنة) وكانوا ينعتونهم على الدوام بالنعت ذاته الذي يستخدمه صموئيل: (السّحت آكلي الحرام). وهذا هو المعنى الحقيقي للكلمة العبرية (ها ـ مشحيت) التي فهمها المخيال الغربي الاستعماري على أنها تعني (المخربين). إن أحداث السِفر التوراتي تدور في جغرافيا محددة، وأطرافها من الجماعات التي يمكن التعرّف إليها في نطاق هذه الجغرافيا. فهل يعرف التاريخ الفلسطيني القديم مثل هذه الجماعات؟

أورشليم الرومانية في «بلاد اليهودية القديمة»

لا يتردد كتّاب التاريخ في الغرب الأوروبي (وعلى خطاهم كثير من الباحثين المسلمين والعرب) عند الحديث حول **التاريخ الروماني في فلسطين**، في التأكيد دون أدنى دليل علمي واحد على أن أحداث رواية ما يدعى «**سفر المكابين**» دارت في فلسطين التاريخية. وبصدد هذا الزعم؛ فإن لمن المثير للاهتمام حقاً، ملاحظة أن ما جاء فيه، وبالرغم من عدم وجود اعتراف رسمي بالنص، غالباً ما تم اعتماده كوثيقة تاريخية تخص أورشليم العصر الروماني. وبالطبع؛ فإن نص السفر غير المعترف به (من نصوص الأبوغريفيا أي الروايات الشعبية التي كتبها الكهنة) لا يعدّ من النصوص الدينية. ومع ذلك، فهو يعتمَد في الكثير من الكتابات كوثيقة تاريخية. فهل جرت أحداث السفر في فلسطين؟ وما الدليل على ذلك؟ ومتى ظهرت أورشليم الرومانية في فلسطين؟ سوف نجادل

حول هذه النقطة من أجل البرهنة على الحقيقة التالية: أن أورشليم الرومانية لم تظهر إلى الوجود إلا بعد ١٣٠ ق.م وليس قبل هذا التاريخ، وبالتالي؛ فإن الرواية التي سجلها الأحبار والكهنة من يهود اليمن للحروب المتواصلة بين بلاد اليهودية والرومان، لا علاقة لها لا من قريب ولا من بعيد بتاريخ فلسطين. ولذلك، يتوجب إسقاط هذه الحقبة من التاريخ الفلسطيني نهائياً، للأسباب التي سوف نسوقها.

هل ظهرت «بلاد اليهودية» في فلسطين خلال العصر الروماني؟

قبل تقديم جواب قاطع بنعم أو لا، دعونا نتساءل: مَنْ هو يهوذه المكابي بطل أحداث هذه الرواية الشعبية والذي كان ملكاً في بلاد اليهودية خلال أعوام ١٦٦ ـ ١٦٠ ق.م؟ ومن أين جاء «لقبه» هذا؟ ولماذا لم تذكره كتابات اليونانيين والرومان ضمن تاريخ فلسطين؟ ومَنْ هم «الحسيديون» الذين تحدثت نصوص التوراة عن تمردهم في أورشليم على سلطة الحاكم الروماني؟ وَمنْ هم «الحشمونيّون» خصومهم الذين صورت التوراة سلسلة من معاركهم كما صورت المعارك والحملات الحربية الرومانية ضدهم في «بلاد اليهودية» المدّعى أنها شمال فلسطين (الضفة الغربية)؟ وأين وقعت الصدامات والمعارك العنيفة ضد هؤلاء ابتداء من العام ١٩٨ ق.م؟ إن المساهمة العلمية في تصحيح تاريخ فلسطين القديم، وتخليصه من الهرطقات والأحداث الاستشراقية الزائفة، تصبح اليوم واجباً أخلاقياً، ويتوجب توسيع نطاق الاهتمام به، ذلك أن تحرير فلسطين لا يمكن أن يتحقق من دون تحرير صورتها التاريخية من الأوهام والمختلقات الأوروبية. إن هذا النص الأبوغريفي (الشعبي غير الديني) من التوراة، ولكن المعتمد عليه في بناء التاريخ

الروماني في فلسطين، يفرد لواحدة من هذه المعارك، حيّزاً خاصاً لسرد الظروف والبواعث التي دفعت بالحسيديين، وهم فرقة دينية يهودية متشدّدة إلى التعاون مع خصومهم «المكابين» أتباع يهوذا المكابي من أجل مواجهة الرومان. ولأن هذه الرواية تعرضت لتخييل فظيع، وبحيث إنها عُدّت جزءاً من تاريخ فلسطين القديم، فقد توجب علينا إعادة بناء الرواية التاريخية والتدقيق في مسرحها وأحداثها. ولذلك يتعين التأكيد بداية، أن الحملة الحربية الرومانية ومن المنظور التاريخي الصحيح للأحداث، استهدفت بلاد اليهودية وليس فلسطين! وبذلك، سنقيم تمييزاً دقيقاً بين مكانين، أحدهما هو **بلاد اليهودية والآخر فلسطين**، لأن نص السفر لا يذكر أبداً اسم فلسطين أو الفلسطينين، وهذا أمر مثير للاهتمام ويدحض من الأساس كل ما قيل عن أن التوراة ذكرت فلسطين والفلسطينيين في عصر شاول وداود، فيما هي تغفل ذكرهم في عصر يهوذا المكابي؟ فهل تلاشى شعب فلسطين وغاب كلياً عن مسرح الحروب الرومانية ـ اليهودية، إذا ما افترضنا أن هذه الحروب وقعت في فلسطين؟ وكيف يجوز تقبل فكرة أن التوراة سجلت اسم شعب فلسطين واسم بلادهم في عصر داود نحو ٩٣٠ ق. م، بينما تصمت عن ذكرهم في عصر قريب من المسيحية نحو عام ١٣٠ ق.م؟ لا يبدو ذلك منطقياً أو معقولاً بأي شكل من الأشكال. إن مسرح المعارك، وكما يتبين من نص سفر المكابين كان في بلاد اليهودية القديمة وليس في فلسطين. وبالطبع، فقد افترض المستشرقون أن المقصود من اسم هذه البلاد «فلسطين»، وهذا ما لا دليل عليه؛ بل إنَّ التاريخ القديم يكذب جملة وتفصيلاً مثل هذا الزعم. إن أحداً في العالم كله، لا يملك اليوم ولا بالأمس البعيد، أي دليل يستند إلى سجل أو أثر أو نقش، يؤكد أو يلمح مجرد تلميح إلى أن المقصود من بلاد اليهودية

فلسطين، أو أن تكون بلاد اليهودية ظهرت في أرض فلسطين.

ومن المنظور التاريخي ذاته، فقد جرت الحملة بعد استيلاء أنطيوخوس على مصر مباشرة، حيث تمكن بعد سنتين فقط من دخول أورشليم. لكن، أي أورشليم؟ وهل كانت تدعى القدس؟ وهل كانت أورشليم هذه في فلسطين؟ وهل حدث التمرد على الرومان، أو ما يسمى في الموارد التاريخية الأوروبية والغربية عموماً بـ «ثورة اليهود على الرومان» في فلسطين؟ ما تقوله الرواية هو الآتي: إن يهوذا المكابي، وبعد نحو اثنين وثلاثين عاماً من بداية الحملة الرومانية التي انتهت باحتلال أورشليم، أصبح ملكاً على «بلاد اليهودية» أي في العام ١٦٦ ق.م. ومع صعود يهوذا بدأت منذئذ، سلسلة جديدة من المعارك والصدامات الدامية بين اليهود والرومان. والسؤال المنطقي الذي يجب أن يطرح على علماء التاريخ: ومن هم هؤلاء اليهود؟ من أين جاءوا، ولماذا اصطدموا بالإمبراطورية الرومانية؟ وإذا كانوا قد اصطدموا بها في فلسطين، فلماذا لا تذكر السجلات الرومانية الموثقة أي شيء عن هذه المعارك؟ ولماذا لا تقول ـ هذه السجلات ـ إن الرومان استولوا على أورشليم أو القدس في فلسطين خلال هذه الحملة؟ دعونا نعيد بناء الرواية التوراتية لتخليصها من المخيال الاستشراقي السقيم الذي قرئت به. تقول التوراة إن **يهوذه المكابي ولد** في موضع يدعى «**مِدان**» ـ بكسر الحرف الأول ـ **لأبٍ كاهن يدعى متتيه بن يوحنن بن سمعان**، وإنه من قبيلة «**بني يريب**»، وإنه عندما أصبح ملكاً في «اليهودية» واجه أكبر حملة عسكرية رومانية، كان قائدها المباشر أبلونيوس حاكم مقاطعة «**السمرا**» ـ وليس السامرة كما تزعم القراءة الاستشراقية ـ حيث اصطدما في معركة **وادي حورون**. تمكن يهوذه في هذه المعركة المبكرة من حياته كملك

حازم، من إلحاق هزيمة قاسية بالقائد الروماني الذي فرّ من ساحة المعركة مع رجاله باتجاه الساحل. وفي هذا الوقت كان أنطيوخوس يستعدّ لتجهيز حملة كبرى على فارس نتيجة لإفلاس الإمبراطورية الرومانية، وحاجتها إلى خوض حروب جديدة من أجل النهب. اتجه أنطيوخوس من مصر نحو بلاد الشام، وتوقف في أنطاكية التي اتخذها عاصمة له. ثم أصدر أوامره بتعيين بطليموس (قائد إقليم سورية وفينيقيا) وجرجياس أحد أبرز ضباطه، قائدين للحملة على فارس؛ ولذا قام القائدان فور صدور الأمر لهما، بتجنيد مرتزقة من القبائل الموالية للرومان. ومن بين هذه القبائل التي تم تجنيدها لمهاجمة بلاد فارس، قبيلة تدعى باسم واضح وصريح هو بنو إسرائيل. كان التجنيد يجري بوسائل قسرية وبأساليب فظة ومهينة. ومع ذلك سارعت بعض الجماعات ـ تحت التهديد ـ إلى إرسال فرسانها، انطلاقاً من مكان يدعى «أدم».

أدّت هذه الإجراءات بيهوذه المكابي ملك بلاد اليهودية إلى الصدام مع جرجيوس لمنع عمليات التجنيد القسرية هذه. وهكذا، وإبّان التحضيرات لغزو فارس في حملة عام ١٦٦ ق.م، اشتبك الرومان معه في معركة «عموّاس». ثم وقعت ـ تالياً ـ معركة أخرى في موضع يدعى «جازر» وفي «نجد أدم». والنجد كل مرتفع من الأرض. كما جرت معركة أخرى في «يمنيه ـ منيه» ـ والياء حرف لاصق مثل يعرب في عرب، ويكرب في كرب وهذه لغة يمنية ـ. في الواقع كان هناك باعثان قويان بالنسبة ليهوذا المكابي للاحتجاج على زج بني إسرائيل وبلاد اليهودية في الحرب ضد فارس، **الأول**، وله صلة بما يمكن اعتباره نوعاً من الوفاء لذكرى تحرير اليهود من الأسر البابلي بعد مرسوم قورش. لم يكن يهوذا المكابي أو سواه من ملوك بلاد اليهودية، وبسبب قوة هذا الباعث

الأخلاقي، قادراً بأي صورة من الصور على الانخراط في حرب ضد فارس. أما **الثاني**، فكانت له صلة بالروح الاستقلالية للملك العربي (اليهودي) الجديد. وفي العام التالي؛ وعندما كانت العلاقات السياسية بين الرومان وبلاد اليهودية تتدهور بسرعة، وتلوح في الأفق بوادر معارك ضارية جديدة، بدا لكل القبائل في نجد والبادية وفي عموم المنطقة، أن الرومان كانوا يسرعون الخطى باتجاه الحرب مع فارس، ويقومون لهذا الغرض بتجميع قواتهم تحت إمرة **ليسياس**، وفي الآن ذاته كانوا يحشدون قوات أخرى قوامها ٦٠ ألف جندي مهمتها الوحيدة وضع حدّ لتمرّد المشيخة القبلية التي كانت تدعى بلاد اليهودية. وهكذا اندلعت المواجهة الدامية بين بلاد اليهودية والرومان من جديد. وخلال أولى المعارك نجح الرومان في التقدم نحو «بيت صور» لتعسكر قواتهم هناك؛ وهو ما عدّه يهوذه المكابي إنذاراً باجتياح وشيك لبلاده. وفي هذا الوقت ومع تزايد الحشود الرومانية، قرّر أن يعتصم، هو ورجاله في جبل حصين يدعى **جبل صهيون** (صيون وصهيون في الطبعات العربية من التوراة) تفادياً لهزيمة منكرة. ومع ذلك نشبت قرب **بيت صور** (بيت صور) معركة أخرى أقل ضراوة. كان يهوذه عازماً رغم متاعبه مع الرومان، على فرض نفوذه السياسي والديني في بلاد اليهودية؛ بل ومدّ هذا النفوذ إلى أراضٍ جديدة يقطنها أبناء عمومته وخصومه القدماء «بنو عيصو» في جبل «أدم». ولذا هاجمهم في وادي «ع**قربتين** ــ التاء والنون لاصقتان وليستا من أصل الاسم: وادي **القرب**». كما هاجم جماعات بدوية من السّراق واللصوص في محيط منطقة «**بيْن**» ــ وهي برأينا ما يدعى اليوم **أبين** في جنوب اليمن وكبرى محافظاته ــ فأخضعهم لسلطانه. وأخيراً سار بقواته نحو مضارب بني عمون **وهم سكان نجران**. ولسوء طالع يهوذه، فقد صادفه في طريق حملته، جيش

كبير بقيادة القائد الروماني **طيموتوس**. لكن الظروف المناخية وطبيعة المعركة ساعدتاه هذه المرة على تفادي هزيمة منكرة أمام القوات الرومانية، وتمكن على العكس من ذلك، من إلحاق الهزيمة بالقائد الروماني المحلي، ويدخل منتصراً إلى مكان يدعى «**يعزور ــ عزور**»، ثم ليقتحم توابعه من العزلات والقرى الصغيرة. وعلى الفور تناهى خبر انتصار يهوذه إلى أسماع القبائل العربية اليهودية التي هلل بعضها لاندحار الرومان؛ فيما فرّت بعض القبائل المتواطئة معهم إلى موضع يسمى «دي تما ــ ذي تمه»، خوفاً من انتقام المكابين. في هذه الأوقات تلقى يهوذه المكابي وأشقاؤه، كتاباً من بعض القبائل العربية المتورطة في تحالفات عسكرية مع الرومان، تبدي فيه استعدادها في ضوء الانتصارات المتتالية، للتعاون معهم على دحر القائد المحلي طيموتوس نهائياً، وربما طرده من إقليم السمرا ــ السمراء التي حوّلها الرومان قاعدة سياسية وإدارية وعسكرية في قلب الجزيرة العربية. كما ضمن يهوذا في سياق هذه التطورات انحياز قبائل حليفة له، كانت تقيم في «**طبوت ــ ظبوة**» القريبة من مسرح الحرب. وبعد هذه الأحداث بوقت قصير، قرّر ــ وفي إطار سياسة جديدة ــ القيام بسلسلة من الحملات العسكرية لطرد الولاة الرومان الذين عينتهم روما حكاماً على الأقاليم والمقاطعات العربية، فتمّ له تجهيز حملة على منطقة «**الجليل**» لطرد الوالي الروماني منها، وأوكل لشقيقه سمعان مهمة قيادة القبائل في معركة فاصلة لهذا الغرض، بينما اختار السير بنفسه نحو جبل «**جلعد**».

وبينما كان يهوذه المكابي وشقيقه الأصغر يوناتان يعبران وادياً يسمى في العبرية «**ها ــ يردن**» وبعد ثلاثة أيام من المسير في وادٍ يدعى «**العربة**» سمعا من القبائل البدوية المرتحلة في المنطقة، أن

الرومان دمّروا مضارب «**بصرة**» و«**باصر**» وأنهم دخلوا موضعاً يدعى «**علم**»، وآخر يسمى «**كشور**» كما استولوا على «**مقيده**» و«**قرنئيم ــ القرن**»، وأنّ القبائل الموالية لهم هناك، باتت محاصرة ومطوقة تقريباً من كل جانب. أجبره هذا التطور المفاجئ على تغيير وجهته، وربما إحداث تعديل جوهري على كامل خططه الحربية، وبالفعل، اتجه بقواته وبدلاً من مواصلة السير نحو «**جبل جلعد**» إلى مهاجمة الرومان والصدام معهم وجهاً لوجه في «**باصر**» التي تمكن من دخولها بسرعة، ليتفرغ بعد ذلك لطرد الرومان من موضع يسمى «**حيلمه ــ حلمه**». بيد أن القائد الروماني المحلي طيموتوس فاجأه بجيش كبير تمّ تجميعه في «**رفون**» وفي وادي «**العُبَرْ**».

وهكذا، كان على يهوذه المكابي الدخول في معركة ضارية جديدة سوف تمكنه، كما تقول لنا الرواية التوراتية، من تحقيق انتصار لامع في وادي «**بيت بسان**»؛ بل والصعود منه إلى جبل «**صيون ــ صهيون**» مبتهجاً بإمكانية أن تحين الفرصة لحرمان الغزاة نهائياً من الاستيلاء على **أورشليم**. ويبدو أن وهج الانتصارات اللامعة والمتتالية التي حققها هو وأشقاؤه من قادة الجيوش، قد أغرى بعضاً من القادة الصغار في جيشه على مواصلة المعارك لتحقيق انتصارات أخرى سهلة على الولاة الرومان، وهذا ما يدلل عليه قيام هؤلاء بالتحرك صوب إقليم مجاور لجبل صهيون يسمى «**يمنيه ــ منيه**» وهو من السهول الخصبة التي ظنوا أنها يمكن أن تتيح لهم فرصة النصر. بيد أن هؤلاء سرعان ما واجهوا هزيمة ماحقة هناك على يد الرومان المتحفزين. وفي وقتٍ تالٍ من هذه الأحداث، زحف الملك العربي اليهودي على منطقة جبلية تدعى **جنب ــ سراة جنب**، ثم «**حبرون**» فاجتاز موضعاً يسمى «**مريشه**» قبل أن يصل إلى موضع

«ء **شُدد**». وكانت إحدى أهم معاركه في هذا الوقت، قد وقعت في مكان يدعى «**كفر سلامة**» وآخر يسمى «**بئروت ــ البئرة**»، إذ أمكن مطاردة القوات الرومانية هناك حتى وادي «**حصور ــ حضور**».

لكن، بين أعوام ١٦٠ ــ ١٤٣ ق.م وبعد وفاة يهوذه المكابي مباشرة، صعد إلى عرش بلاد اليهودية **شقيقه يوناتان**. كان على الملك الجديد أن يواصل السياسة ذاتها التي انتهجها شقيقه: طرد الولاة الرومان من المنطقة. فكانت أولى المعارك التي وقعت في عهد الملك الجديد، معركة «**نجد تقوع**». لقد بدا يوناتان، في سبيل خوض معركة كبرى جديدة وناجحة، بحاجة ماسّة لمساعدة القبائل العربية المقيمة في وادٍ يدعى «**ء نبطه**». ولذا أرسل على وجه السرعة شقيقه يوحنا، رسولاً إلى هذه القبائل لضمان إسنادها ودعمها. بيد أن القبائل البدوية هناك، وبدلاً من تقديم المساعدة للملك الجديد، قامت باغتيال رسول الملك وشقيقه في معركة مفاجئة عند وادي «**مدبء**». سمع الرومان بأنباء هذه المعارك المفاجئة بين القبائل وبمصرع رسول الملك؛ ولذا زحفوا نحو وادي «**ها ــ يردن**» لتطويق المشتبكين وتدميرهم. وهكذا وقعت معركة جديدة كبرى ضد الرومان في مكان يدعى «**الغوص**». بيد أن يوناتان ورجاله، أفلتوا من الكمين الروماني وفرّوا من الوادي. في النهاية، زحفت القوات الرومانية في إثر الفارين، ودخلت منطقة جبلية وعرة تسمى «**عمواس ــ أعماس**» ووادي «**بيت حورون**» و«**ءيل ــ الإل**» و«**تمنية**»، كما حاصرت جبل «**ثفون ــ ثفن**» ووادي «**بيت بيص ــ بيض**». وفي وقت تالٍ، وفي سياق هذه الصدامات الدامية، أخفق الرومان في معركة أخرى جرت عند مرج «**مكمس ــ المكامس**». ومع صعود **بطليموس الرابع** في مصر

وتولّيه العرش، بدأت تطفو على السطح علامات جديدة على إمكانية عقد معاهدة صلح بين الرومان وبلاد اليهودية. وبالفعل، جرى إبرام المعاهدة الجديدة قرب مسيل مياه تدعى «**يفو ــ يفاء**». وبموجب معاهدة الصلح تسلّم يوناتان مقاطعتي «أفرمه» و«لده ــ لذة» من الإدارة الرومانية، بالإضافة إلى «الرمتئيم ـ الرمات» التي ضُمّت إلى بلاد اليهودية. وفي أعوام ١٤٣ ــ ١٣٤ ق.م صعد نجم الشقيق الأصغر: سمعان كقائد لجيش اليهودية. لكن صعوده هذا جاء في وقتٍ عادت فيه العلاقات مع روما إلى التدهور. ومع أولى المعارك في هذه الحقبة وقع يوناتان الملك أسيراً في يد الرومان. كانت مهمة القائد الجديد سمعان تحرير شقيقه الملك من الأسر. ولذا اتجه بقواته نحو «**حدد**» حيث أقام هناك معسكراً اتخذه لغرض إطلاق عملية تفاوض صعبة ومعقدة. ويبدو أن المفاوضات منيت بنكسة خطيرة وغير متوقعة، فقد هاجم الرومان منطقة «**ء دورة ــ الدارة**» بينما كانت الثلوج تغطي جبل **سقم** (في النص العبري: ب ـ سكمه، بحرف الجر ـ ب ـ: في سكمه أو سقمه. أما في الترجمة العربية فاعتبر حرف الجر من أصل الاسم). واعتباراً من هذا الوقت، غاصت الإمبراطورية الرومانية بمشاكلها الداخلية العويصة وبحروبها مع فارس، بينما نعمت بلاد اليهودية في سلام طوال هذه الحقبة.

ويختتم النص الشعبي روايته لهذه الحقبة من تاريخ المعارك مع الرومان، بالقول إن سمعان توفي ودفن في **حصن دوق**.

كيف نروي الرواية بصوتنا لا بصوت الآخر؟

هذه هي ـ بإيجاز شديد ـ أهم الأحداث التي وقعت في ما يدعى «**بلاد اليهودية**» **التي يزعم من جانب كتاب التاريخ**

التوراتي، أنها وجدت في شمال فلسطين؟ وفي التراث الكتابي تدعى الضفة الغربية وغزة باسم بلاد «يهودا والسامرة» استناداً إلى ما ورد في سفر المكابين. لقد قدر لهذه الأحداث أن تروى مرتين، مرة بصوت كاتب «سفر المكابين» ومرة أخرى بصوت أوروبي ـ استعماري لا يعرف أيّ شيء عن جغرافية الرواية التوراتية. وفي هذا الإطار، فليس أمراً مفاجئاً أن نلاحظ التناقض الصارخ في **ما يقوله الصوتان، كل بحسب منطقه وطريقة سرده وحتى شكل نطقه للأسماء.** بيد أن الأمر المحزن بالنسبة لي ـ في هذا التناقض ـ أن كثرة من الكتاب العرب المعاصرين وفي روايتهم للحقبة الرومانية من التاريخ الفلسطيني، لا يملكون من الوثائق العلمية سوى القليل، ولذا فهم في الغالب الأعم يستندون إلى هذا السفر كما تم تأويله من جانب الاستشراقيين والتوراتيين المتعصبين. ولا يكاد يوجد اليوم، في حوزة الرواة المعاصرين، وثيقة أخرى موازية أكثر دقة أو موضوعية. والمثير للاهتمام أن **هيرودوت** (نحو ٤٥٠ ق. م) لا يذكر في تاريخه، أيّ شيء عن بلاد اليهودية هذه في فلسطين، مع أن الفاصل الزمني بين عصر هيرودوت وأحداث السفر، تجعل من الصعب تصور أن المؤرخ اليوناني تجاهل وجودها في فلسطين (نحو ٢٠٠ عام فقط)؟ وإذا كانت مملكة اليهودية قائمة قبل المرحلة السلوقية، أي قبل تمزق الإمبراطورية اليونانية، فمن غير المفهوم تغاضي المؤرخين والجغرافيين عن الإشارة إليها، مع أنهم كتبوا عن تلك الحقبة ووصفوا بدقة متناهية جغرافية جزء من المنطقة؟ فأين يجب أن نضع هذا المقطع من التاريخ الروماني؟ هل نضعه ضمن التاريخ الفلسطيني وعلى أيّ أساس؟ وهل هناك ما يثبت أن مسرح المعارك هو مسرح فلسطيني؟ وإذا كانت المواضع الواردة في هذا النص، هي مواضع وأماكن وجدت ذات يوم في فلسطين، والمعارك ضد الرومان جرت هناك بالفعل؛ فلماذا صمتت

النقوش والسجلات الرومانية عن ذكر أيّ شيء عنها؟ وأخيراً: لماذا لا نجد في جغرافية فلسطين أيّ موضع من المواضع المذكورة، مع أن التاريخ المحتمل لاندثارها يبدو ملتبساً ومتناقضاً مع فرضيات العثور على مواضع أقدم ذكرتها التوراة؟

فإذا كان ممكناً الادعاء أن علماء التوراة عثروا على أسماء مواضع من عصر موسى قبل خمسة آلاف عام ق.م (في فلسطين) ومن عصر (سليمان ٩٢٠ ق م) فمن باب أولى أن يعثروا على أسماء مواضع تعود إلى عصر قريب جداً (نحو العام ١٦٠ ق.م)؟ سنقوم، في إطار رواية جديدة لهذه الحقبة، ولأجل وضعها ضمن التاريخ الحقيقي، وهو تاريخ الحملات الحربية اليونانية ـ الرومانية ثم البيزنطية على الجزيرة العربية واليمن وعلى ساحل البحر الأحمر، لإخضاعه والسيطرة عليه وليس من أجل السيطرة على فلسطين؛ بالخطوات الإجرائية التالية:

أولاً: سنقوم بإعداد قائمة بأسماء المواضع الواردة في النص، ومقاربتها مع الأسماء الواردة في قائمة الهمداني في كتابه الشهير «**صفة جزيرة العرب**».

ثانياً: سوف ننشئ مقاربة جديدة بين الرواية التوراتية ونصوص ابن العبري عن يهوذه المكابي و«بلاد اليهودية».

ثالثاً: سنقدم مقاربة موازية للوصف التوراتي لبلاد اليهودية، مع وصف الجغرافي اليوناني بطليموس الذي نقل الهمداني شهادته لنا.

رابعاً: سنقوم ـ في سياق هذه المقاربات ـ بتحديد المقصود من

اسم المكان الذي أعطى ليهوذه لقبه الذي عرف به: (المكابي) ونقوم ـ استطراداً ـ بإعادة نسب «الحسيديين والحشمونيين» إلى أسرهم التاريخية، وتأويل حملهما لهذين اللقبين الدينيين.

مدخل إلى «تصحيح التاريخ الفلسطيني القديم»

ابتداء، يتعين التأكيد أننا لن نلجأ تحت أي سبب أو ذريعة إلى لعبة المقاربة اللغوية بين أسماء المواضع، ولن نلجأ ـ تحت أي ظرف ـ إلى استخدام طرائق التحليل الفونيطيقي للكلمات والأسماء. كل ما سنقوم به يقع في نطاق مساجلة روايات الاستشراقيين من منظور تاريخي، وهذا يتطلب منا استخدام وثيقة تاريخية وجغرافية عظيمة تركها لنا الهمداني مؤرخ اليمن، قصد البرهنة على أن الهمداني وصف المسرح نفسه لهذه الأحداث، بوصفه مسرحاً عربياً في قلب الجزيرة العربية (جنوب وجنوب غرب) وليس في فلسطين. كما سندعم هذه الشهادة بما تركه لنا الشعر الجاهلي من وصف دقيق للأماكن والمواضع الواردة في التوراة، وبنفس الصيغ من دون أدنى تلاعب لغوي. كما يتوجب الأخذ بنظر الاعتبار الحقيقة المذهلة التالية: أن فلسطين التاريخية لم تعرف في أي وقت من تاريخها القديم، أي اسم من الأسماء الواردة في هذا السفر لا في صورة جماعات من القبائل، ولا في صورة أماكن أو قرى، ولذلك تجاهلهما اليهود واعتبروهما نموذجاً دالاً على جهل كاتب السفر بجغرافية فلسطين؟ وباستثناء أسماء بعض القرى الصغيرة مثل (قرية علما في قضاء صفد) التي يزعم أنها هي ذاتها «علم» الواردة في التوراة؛ لا دليل على وجود أي تشابه أو تماثل بين الأسماء الواردة في التوراة وجغرافية فلسطين. وإلى هذا كله؛ فإن لمما يبعث الشك في حقيقة الأسباب والدوافع

التي أدت إلى رفض السفر من جانب المتدينين اليهود، واعتباره من الأبوغريقيا، أن اليهود وجدوا تناقضات صارخة في الوصف الجغرافي لا تسمح لهم باعتباره «حدثاً في فلسطين القديمة»، ولذلك كتب محققو التوراة ملاحظة ذات مغزى خاص، مؤداها أن كاتب النص إما جاهل بجغرافية فلسطين وإما أنه وقع في أخطاء فادحة. والحقيقة أن كاتب السفر لم يكن كذلك في الحالتين؛ بل كان دقيق التوصيف والأمانة، فهو يسجل أحداثاً وقعت في مسرح آخر لا صلة لفلسطين به.

هذه الملاحظات ضرورية وحاسمة لجهة تفهّم النظرية التي يطرحها هذا المؤلف الصغير بصورة صحيحة وخالية من الأحكام المسبقة والمتعجلة.

إن تصحيح تاريخ فلسطين القديم، يستحق من الباحثين العرب، القيام بمغامرات علمية جريئة من هذا النوع، وتحدّي رواية الغرب الاستعماري ودحضها من أساسها. ولنبدأ من الاسم التوراتي «**مكاب ــ مكابين**»، الذي لا وجود له **شمال فلسطين** كاسم لموضع بعينه مهما فتشنا هناك، بينما يمكننا أن نجده بسهوله **في الامتداد الجبلي لمنطقة اليمامة** ومرتفعاتها في صورة (كاب). وفي اللهجة اليمنية (**مكاب، مثل: مكمس في كمس، ومنوب في نوب**، واليمنيون وبعض قبائل العرب في البادية تضيف الميم في أول الاسم أو الكلمة، وحتى اليوم يستخدم بدو العراق هذه الميم المنقرضة فهم يقولون **جئتم في جئت، واقعدم في اقعدوا**). والكاب ــ مكاب يقع ضمن جغرافية اليمن القديم وفي نجده (مرتفعاته) كما وصفها الهمداني. وعلى مقربة منه تماماً هناك موضع (مِدان ــ مدان في النص العبري) التي ولد فيها يهوذه ــ

هوذة لأسرة كاهن من كهان نجد اليمامة الممتد باتجاه اليمن، ويدعى **متنا (مثنى) بن حنى ـ حنن من بني يريب ـ ريب.** والياء في الأسماء من الحروف اللاصقة كما قلنا وهي لهجة يمنية، استخدمت كأداة تعريف منقرضة (الريب). وليس هؤلاء، بطبيعة الحال وكما يشي اسمهم، سوى قبيلة **بني الريب** ـ ولنتذكر اسم أشهر شعراء هذه القبيلة الشاعر الجاهلي **مالك بن الريب** ـ. وللتذكير، فقد واجه الإسلام الوليد معارضة قوية من أحد أهم ملوك اليمامة وكان يدعى هوذة (يهوذه) وكان لتوه قد وضع التاج على رأسه حين ظهر الإسلام. والمثير للفضول أن **قبيلة بني الريب تقيم على مقربة من الجليل ـ الجليل في النص العبري**؛ بل وقرب حدد ـ حدد الذي دارت فيه إحدى أهم المعارك ضد الرومان في قلب الجزيرة العربية.

وأخيراً وليس آخراً، إن **بني الريب** يقيمون على مقربة تماماً من موضع ء **نبطه ـ ء نبطه.** وهذا ما يفسر لنا سبب طلب المساعدة منهم في مواجهة الرومان الزاحفين. ولسوف نرى هذا المغزى عندما يقوم **يوناتان** بالانتقام من بني **يمرء ـ المرء** لقتلهم شقيقه يوحنا، حين أرسله لطلب المساعدة في مواجهة الرومان. هذا فضلاً عن أن **كاب ـ الكاب** ليست بعيدة عن بيت ء **يل ـ الإل** التي جرت فيها معركة أخرى. وسيكون أمراً مدهشاً عندما نعلم أن سائر هذه الأماكن هي في الفضاء الجغرافي ذاته لموضع **حسم ـ حشم** الذي جاء منه اسم النسبة **الحسمونيون ـ الحشمونيون.** هاكم على سبيل المثال وحسب، وصف الهمداني (**صفة**: ٢٩٥ ـ ٢٩٦) لهذه المواضع كما وردت في السفر التوراتي ـ ومن دون أي تلاعب لغوي من جانبنا ـ:

> (**من اليمامة إلى نجد**: حرض وعمير والغمر وغمر ذي كندة والسرّ وعاقل وبه قبر الحارث الملك، **والكاب**، ووادي قاعة من أرض تميم «....» وأدم بديار مزينة ـ وأدم بالسحول ـ جبلان، وذو الجليل من مواضع الوحش «....» ثم الغميضاء لكنانة في تهامة الحجاز، **وحدد أرض لكلب وحسم** ويقال ـ له ـ ذو **حسم والإل** جبل وأنبطه **وهي ـ من ـ مواضع الوحش**) ـ انتهى النص ـ

هذا هو الفضاء الجغرافي المتكامل لمسرح الحرب، وللمنازل القبلية التي وصفتها التوراة، منزلاً إثر منزل، وحيث عاشت هناك كل الجماعات المذكورة: ها هنا الكاب ـ مكاب (وفي لهجات اليمن غالباً ما تلصق الميم في أول الاسم باعتبارها أداة تعريف منقرضة مثل ءم ـ سفر في السفر كما في كلام الحميريين) وها هنا **جبل أدم في نجد اليمن الذي هاجمه يهوذه ـ هوذه** لفرض نفوذه على **أبناء عمومته من بني العيص ـ عيصو، وعلى مقربة منه وادي الجليل ـ الجليل**، حيث وقعت عند سفوحه معارك ضارية مع القوات الرومانية، فضلاً عن حدد وءيل وأنبطه وقاعة ـ تقوع. وأخيراً ها هنا موضع حسم ـ حشم (وفي النطق العبري فإن السين والشين حرف واحد) الذي جاء منه اسم الجماعة القبائلية حسموني ـ الحشمونيين. أما اسم الملك يوناتان؛ فإنه لأمر مثير أن نعلم طبيعة صلته الدلالية باسم اليمامة (المنطقة)، فهو من الجذر (يونه بمعنى يمامة ـ وفي البناء العبري يوناتان ـ يمامات). وبهذا المعنى يكون يوناتان **اسم النسبة اليمامي**. إن تاريخ الحملات الرومانية ـ واليونانية من قبل كما في حملة غالوس نحو ١٢٥ ق.م على

اليمامة وسائر أجزاء الجزيرة العربية، لإخضاع قبائلها وبسط نفوذ الإمبراطورية فيها، يجسّد في بعض مقاطعه الساخنة حلماً قديماً لطالما راود اليونانيين من قبل والرومان من بعد. لقد بدأت هذه الحملات انطلاقاً من مصر منذ عصر البطالمة واستمرت حتى زوال الإمبراطورية البيزنطية. بيد أن الأهم من كل ذلك، رؤية مغزاها في سياق الصراعات القديمة بين الآشوريين والمصريين، حين تزاحم المصريون والعراقيون القدماء وتدافعوا بالمناكب للاستيلاء على خطوط التجارة الدولية عبر البحر الأحمر. إنه لأمر صعب حقاً، وخارج كل منطق تاريخي أو جغرافي، تخيل وقوع هذه الحروب في فلسطين، لسبب بسيط للغاية، هو أن **بلاد الشام التاريخية كلها، كانت في هذه الآونة، تخضع فعلياً للسيطرة الرومانية المباشرة؛ بينما ظلت الجزيرة العربية واليمن ـ على العكس من ذلك ـ مضطربة ومتمردة وعصيّة عليها**، ولم يتمكن الرومان من تحقيق وجود مستقر وفاعل في اليمن، حتى مع سقوط ميناء عدن بأيدي جنودهم في العام ٥٠ ق. م، عندما نفذوا إنزالاً بحرياً ناجحاً هناك؛ بل إن الإسكندر المقدوني ـ وقبل نحو قرنين من هذه الأحداث ـ لم يتمكن من تحقيق هذا الحلم، ففي حملته الكبرى على الجزيرة العربية واليمن، وبالرغم من نجاحه في ترك حامية عسكرية في جزيرة سوقطرة اليمنية، وقدّرها الهمداني بعشرة آلاف رجل من أجل تأمين نفوذ يوناني ـ إغريقي حقيقي هناك (وحتى اليوم لا يزال هؤلاء يعيشون في سوقطرة اليمنية كقبائل عربية لها سجلات أنساب ترتفع إلى اليونان وقد تسنى لي شخصياً رؤيتهم والتعرف إلى بعض السكان ممن لا يزالون يعتقدون بأصولهم الإغريقية) فإنه لم ينجح تماماً في فرض سيطرته على قبائل متمرّدة وغير مطيعة، وتملك فوق ذلك رابطة دينية قوية ومستعدة بطبيعتها لقتال قاسٍ في مناطق وعرة.

إن التقسيم الإداري لفلسطين، والمعروف جيداً عند المؤرخين والباحثين الغربيين، لا يتضمّن أيّ اسم من الأسماء الواردة في سفر المكابين. وهذا أمر مثير بالفعل؟ ولو افترضنا لأغراض السجال العلمي وحسب، أن الرومان كانوا يخوضون صراعاتهم ضد يهوذا المكابي وبلاد اليهودية في فلسطين؛ فإن لمن المنطقي توقع قيام الكتّاب الرومان بتسجيل أسماء المقاطعات التي كانت خارج نفوذهم، أو التي سعوا إلى إخضاعها عبر هذه السلسلة من الحروب! والأمر المدهش ـ في هذا الإطار ـ أن يتجرأ التوراتيون على ادعاء وقوع الأحداث في فلسطين في عصرٍ أنجز فيه الرومان، وسجلوا بدقة كافية، كل ما يتعلق بالتقسيم الإداري لفلسطين وبلاد الشام. وفي سجلات هذا التقسيم الإداري لا وجود لأي اسم مما ورد في السفرين؟

فارس وروما قرب أورشليم وجهاً لوجه

وفي الواقع؛ فإنّ الحملات الرومانية ـ البيزنطية على فارس والتي يعرفها العرب جيداً لأنها استمرت حتى عشية الإسلام ـ كانت تنطلق من مصر وبلاد الشام الخاضعة أصلاً لنفوذهم، حيث اتخذوا من أنطاكية عاصمة حربية وإدارية لهذه الحملات. وهذا ما يفسّر لنا واقعة تاريخية كانت معروفة في الإسلام المبكر، عندما طلبت قريش من أبي بكر (رض) الدخول معها في رهان على انتصار فارس في الحرب مع بيزنطة. آنذاك، كان المسلمون الأوائل يراهنون على انتصار بيزنطة المسيحية على فارس الوثنية، وهذا ما تعبر عنه بدقة آية (**غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون**). وهذا يعني أن المعارك كانت في أدنى الأرض، أي على مقربة من أرض العرب لا في مكان بعيد عنهم. وبالطبع؛ فقد كان

رهان فارس التاريخي، يقوم على فرضية أن الرومان سوف يغطسون في النهاية داخل رمال الجزيرة العربية. في الواقع لم تتوقف الحملات الحربية الرومانية على اليمن لانتزاعها من يد الفرس؛ حتى عشية الإسلام حين تركوا لوكيلتهم المحليّة (الحبشة) أن تبادر إلى احتلال اليمن نيابة عنها عام ٥٢٥م. وكانت فلسطين وبلاد الشام في أعوام ١٦٠ ـ ١٣٤ ق.م هادئة بطبيعة الحال، وتخضع كلياً لسيطرة الرومان؛ بينما كانت سواحل البحر الأحمر ونجران واليمامة ونجد، تشكل صداعاً مزمناً يصيب روما بالدوار، جرّاء استمرار التحديات، تماماً كما هو الحال مع الإمبراطورية الآشورية التي لم توقف حملاتها الحربية من أجل تأديب الجماعات البدوية المتمرّدة في ساحل اليمن. بكلام آخر: إن الحملات الحربية الرومانية على اليمامة والساحل اليمني، انطلاقاً من مصر ـ كما يقول السفر التوراتي ـ يجب أن ينظرَ إليها كاستطراد في حملات تقليدية قام بها المصريون أنفسهم، إبّان صراعهم مع الآشوريين. كل ما في الأمر، أن الرومان، أي حكام مصر الجدد في التاريخ الروماني ـ المصري، كانوا يواصلون الدور ذاته الذي فرضته من قبل مصالح مصر الاستراتيجية في ساحل البحر الأحمر واليمن (وهذا كما قلنا يجب أن يفسر لنا سرّ اهتمام مصر المعاصرة في عصر الزعيم الراحل عبد الناصر بدخول اليمن؟). وإذا ما وضعنا هذه التصورات كأساس مقبول للحروب الرومانية، فسوف نتمكن بسهولة، من رؤية كل المواضع المذكورة في السفر التوراتي.

هاكم وصف الهمداني للموضع الذي ولد فيه يهوذه ـ هوذه المكابي، وللمواضع الأخرى التي شهدت المعارك الدامية (**صفة**: ٢٥٩ ـ ٢٦٠):

(الرّيان من مياه الضّباب وأيمن من قنوين وأسفل منه **الفُرية** والحصاة حصاة جبلة وعن يسارها بطن السرّ وهو أسفل وادي **الرمة** «....» ويظهر النيّر بينه وبين الجنوب بطن **العبرى**، وإحساء بني حوثه وحلاقيم وفي رأس **العبرى** صوقع **والمدان**)

ها هنا **المدان ــ مدان** التي ولد فيها الملك يهوذا، تماماً كما في النص التوراتي وعلى مقربة منها **وادي الرّمّة** (الرمات ــ رمتئيم لأن الرمة وادٍ طويل عريض كما يقول الأصمعي) التي أعيدت إلى سيطرة القبائل بعد المفاوضات مع الرومان. وها هنا وادي **عفرمة ــ الفرية** (ولاحظ دخول الميم بشكل عشوائي فهذا يعطينا فكرة عن التطور التاريخي لأداة التعريف العربية) وغير بعيد عنها وادي العبرى ــ العبَرْ الذي شهد بعض المعارك، فضلاً عن هضبة **جبلة** التي يقول النص ــ في تفاصيل لم نذكرها ــ أن معركة دامية وقعت فيها ضد الرومان. أمّا **الحسيديون ــ حسيديم** الذين تمكن يهوذه ــ هوذه من استمالتهم؛ فهم سكان موضع لا وجود له في فلسطين بكل تأكيد؛ بينما يمكننا رؤيته بسهولة في جغرافية اليمن، وبالصورة ذاتها: **وادي الحسيد**.

هاكم ما يقوله الهمداني عن هذا الوادي وقبائله التي رأينا بعضها في الصفحات السابقة ـ (**صفة**: ١٣٧ ــ ١٣٩):

في وصف **الساحل** وقبائله وأوديته: عتود وادٍ صغير، ثم **وادي بيض**، ومآتيه من **سراة جنب** «.....» يرد العارة من أرض بني مسيح من شرقيه **جبال السّريح** (انظر ما كتبناه عن **قدس** ــ المؤلف). ثم **وادي الحسيد**، مآتيه من غرب جبل

صبر، وجبل سامع، ثم يخرج المخا إلى **البحر**
«....» فتجتمع جميع مياه رُسيان حتى تلتقي
بالحسيد ، ويصبّان في موزع، فينتهي جميع هذه
الأودية في وطن حيس وبين أرض بني مجيد
حتى تخالط البحر.

هذا هو باختصار شديد، وصف الوادي الذي جاءت منه الجماعة المسمّاة (الحسيديون) وكانوا جماعة يهودية متشدّدة دينياً. ونحن نعلم من تاريخ قريش أنها كانت تنقسم إلى فرعين: الحُمْس وهم متشددون دينياً، والحلّة وهم الذين عرفوا به باليسر والتسهيل في أمور الدين، بما يعني أن تقاليد التشدد والتسامح الديني في هذه الرقعة الجغرافية، هي تقاليد تضرب في جذورها عميقاً داخل تربة المعتقدات الدينية المتوارثة والمتواصلة. ولذلك ليس دون معنى أن يُعرف هؤلاء بالتشدد، إذا ما علمنا أنهم سكان وادٍ مقدس هو من أودية جبال السريح على مبعدة ٨٠ كيلومتراً إلى الجنوب من تعزّ باتجاه عدن، حيث جبل قَدَس المبارك. ليست هذه مصادفة محض، وقعت نتيجة توافق لغوي أو دلالي؛ بل هي حقيقة جغرافية لا سبيل إلى إنكارها. إن هذه الجماعة التوراتية التي تحتفظ باسم الوادي، ليست بكل تأكيد من سكان فلسطين الذين استمالهم يهوذه المكابي؛ بل هم من القبائل التي تعيش مع بني مجيد ـ مجدو عند الساحل اليمني الطويل. وها هنا **وادي بيض ـ بيص**، فضلاً عن **سراة جنب ــ جنب في العبرية**. إن فلسطين التاريخية لا تعرف المكابين ولا الحسيديّين ولا الحسمونيين. ولذا؛ فإنَّ الحملات الرومانية التي يصفها السِفر، يجب أن ينظرَ إليها على أنها استمرار للحملات الفرعونية القديمة للسيطرة على ساحل البحر الأحمر واليمن ونجران. وفي هذا

الإطار سوف نقدم مقاربة جديدة لنسب يهوذه المكابي.

تنتسب أسرة يهوذه ـ كما رأينا من النص ـ إلى قبيلة **بني يريب** ـ ريب ، مثل: **يمرء ــ مرء، يعرم ــ عرم، يهوذه ـ هوذه** والياء والتاء من الحروف اللّاصقة. وهذا الاسم يجب أن يحيلنا إلى اسم الوادي الشهير قرب **مدان** والذي تقول التوراة إنه مكان ولادة يهوذه (تيمناً باسم السبط الأكبر في إسرائيل: يهوذا ــ هوذه أو هود في كلام الحجازيين) نعني وادي الريب. هاكم وصف الهمداني للوادي نفسه ولوادي يمرء حيث صرع شقيق الملك ورسوله (**صفة**: ٢٦٢ ـ ٢٦٤)

> (**الريب وادِ رغَاب ـ أي أنه وادِ خصب ـ ضخم** فيه بطون من ـ بني ـ قشير. وأسفل **وادي المريب وفي وسطه بنو حيدة**، ثم من فوق ذلك ممّا يحف **الريب إلى بلاد باهلة**. ومن قصد الشمال من الفلج وادِ يقال له الهزمة بينه وبين **اليمامة**، ومن أخذ **الثفن** من الفلج إلى **اليمامة** أخذ أسافل أودية جعدة فيأخذ الغادي على أسفل الغيل ـ أي الماء الغزير ـ من **الثفن وهو وادِ رغّاب كثير النخل كثير الحصون**. ثم وادي **المراء** ثم البرك)

ومن سائر هذه النصوص التي يقدمها الهمداني، يمكننا رؤية الوديان والجبال التي ورد ذكرها في السفر التوراتي. ها هنا **الحسيد والمريب وجبل الثفن وحسم والعبرى** والمراء (**الذي ينتسب له بنو يمرء**) **بالتسلسل نفسه وبالصيغ نفسها** وعلى مقربة من بعضها البعض، فضلاً عن سائر الأسماء الأخرى مثل **مدان** التي ولد فيها يهوذا. فهل ثمة ما يدعونا إلى الظن، مجرد الظن، أن هذا التطابق

في الوصف وفي صيغ الأسماء ومبانيها هو محض مصادفة لغوية أم أن للأمر صلة عضوية (حية) بجغرافية يجهلها التوراتيون؟ لكن، ولأجل مقاربة جغرافية تجعل من هذا الحدث قابلاً للتصوّر ضمن وحدة جغرافية متكاملة ومتناغمة، هاكم وصف الهمداني للوديان الكبرى في اليمن: (صفة: ١٣٧ ـ ١٣٩) ـ النص مختصراً» ـ:

(في وصف وادي الحسيد: والوادي الرابع هو وادي **الحسيد** مآتيه من غرب جبل صبر. ثم يخرج المخا إلى البحر. ووادي الضباب إلى القرعاء من مناهل برداد وأرض شرعب من بلد **الركب** وجبال شمير فتجتمع جميع مياه رسيان حتى تلتقي **بالحسيد**)

(ويضيف: ١٤٦ ـ ١٤٧):

(والثاني **وادي أبين** وهو مما يلي لحج ومآتيه من شراد وبنا (ومن سائلة حورة التي تتألف من **جبال الأعماس**: المحقق) والثالث وادي يرامس والرابع دثينة والخامس أحور. وجبال السكاسك: جبل صبر للحواشب **وجبال الركب** وشمير)

هذا هو وادي الحسيد، وها هنا جبال الأعماس وتلك وديان أبين التي ورد ذكرها في معارك يهوذه المكابي مع الرومان. ومن غير شك؛ فإنَّ الوصف الجغرافي الذي ترسمه التوراة بدقة لكل الأماكن والمواضع، باعتبارها مواضع جبلية ووديانا، لا يترك أدنى مجال للاشتباه بأن ما نقرأه قد يقع في نطاق المصادفة اللغوية وحسب، ذلك أن وجودها بالصيغ والتوصيفات نفسها وفي فضاء جغرافي

واحد، يمتد من اليمامة حتى أعالي نجد اليمن وسراتها، أمر يستحيل ردّه إلى مجرد مصادفة جغرافية. وهذا يعني أن الذين وضعوا سِفر المكابين ضمن التاريخ الفلسطيني، إنّما كانوا يزوّرون التاريخ الإنساني برمّته، لأنهم يحشرون فيه جماعات وعصوراً لا وجود لها. ولذا؛ يتوجب أن نشطب من التاريخ الفلسطيني عصراً بأكمله، وهذا ما سوف يتضح لنا بصورة دقيقة حين نقوم برواية التاريخ بصوتنا.

القدس ليست «أورشليم العصر الروماني»

تُرى، لماذا لم يسجل كاتب سفر المكابين، وهو يتحدث عن احتلال أورشليم العاصمة الدينية لبلاد اليهودية من قبل الرومان، أنها «القدس» أو هي «قدس»؟ ولماذا اكتفى بالقول أن أورشليم سقطت في يد الرومان؟ كان الرومان، ومنذ تفكك الإمبراطورية اليونانية وانتقالها إلى البطالمة في مصر، والسلوقيين في العراق وخراسان وسواها، وبعد نحو اثني عشر عاماً من وفاة الإسكندر المقدوني ودخول العالم القديم في عصر جديد إغريقي ـ روماني بدءاً من عام ٣٣٠ ق. م؛ يدركون الأهمية الاستراتيجية لسواحل البحر الأحمر. ولذا راحوا يصوّبون أنظارهم نحو الجزيرة العربية واليمن بعد أن تمّ لهم إخضاع بلاد الشام.

وفي الواقع، لم تكن هناك تحدّيات تذكر في فلسطين أو بلاد الشام، بالمقارنة مع المتاعب التي تسبّبت بها القبائل البدوية في الجزيرة العربية واليمن، وهذا ما يفسر على أكمل وجه، السبب الحقيقي لوجود تقسيم إداري روماني في فلسطين. إن هذا يدلل على عصرٍ من الاستقرار لا على عصر من الفوضى والحروب؛

والمثير أن هذا التقسيم لا يتضمّن أيّ اسم من أسماء المواضع والمدن والأماكن الواردة في سِفر المكابين. هكذا، فقد كان هناك ونحو العام **١٦٠ ق.م** حاكم رومانيّ على **إقليم بلاد السمرا** (وبالعبرية: مدينة أي: بلاد) كما كان هناك ولاة من ضباط الجيش في سلسلة من المناطق تمتدّ إلى **وادي حورون**. وبالطبع فليس ثمة في فلسطين أي وادٍ قرب البحر بهذا الاسم، والسِفر يصفه بأنّه على مقربة من البحر. لقد حدثت أولى المعارك ضد حكام المقاطعات الرومانية في أماكن متفرّقة لا وجود لأيّ منها في فلسطين، ولا بأيّ صيغة من الصيغ. فإلى ماذا يشير هذا؟ ببساطة، يشير هذا الأمر إلى حقيقة أن **المقاطعات المذكورة لم تكن في فلسطين؛ بل في نجد واليمامة وبعض أجزاء اليمن** التي لم يكن ممكناً إخضاعها فعلياً، أو السيطرة عليها بشكل مباشر، ولكن يمكن إدارتها بواسطة حكام يتلقّون، باستمرار وكلما اقتضت الحاجة، دعماً حربياً يتمثل في الحملات التأديبيّة للقبائل. وفي هذا النطاق؛ ركّز الرومان على سياسة إنشاء قاعدة عسكرية خلفية لدعم عملياتهم الحربية في **أنطاكية** ـ التي أصبحت العاصمة الحربية والإدارية منذ عصر بطليموس الصغير ـ. يقول سِفر المكابين ما يلي: إن الرومان تعرضوا لهزيمة ماحقة على يد يهوذه المكابي في **وادي حورون وفي جزر** ـ جازر حسب الرسم التقليدي في توراة الطبعة العربية ـ، وإنهم فرّوا من القتال باتجاه البحر. كما نعلم من السفر أن يوحنا شقيق يهوذه، قتلَ في وادي **حورون** على يد عصابة من **بني يمرء**، وأنّ إحدى المعارك وقعت في ء**شدد** التي جرى تخييلها في صورة **أشدود**. إننا لا نعرف ضمن خريطة فلسطين القديمة، **أي موضع يدعى حورون، يمكن الوصول منه إلى موضع يدعى جزر، أو الهروب منه إلى البحر، كما لا نعرف أشدود** قرب هذه المواضع؟ بينما نعلم من وصف الهمداني أن هذا الوادي هو

بالفعل لقبيلة تحمل الاسم نفسه، وأنّ وادي جزر يجاوره، وهما معاً يصبّان في البحر، وأنّ **ءشدد** اسم لوادٍ بعينه في اليمن، وأنه المكان الذي تقيم فيه القبيلة اليمنية التي تحمل الاسم نفسه. يقول الهمداني (**صفة**: ١٨٦ ـ ١٨٧):

> في وصف الطريق إلى ردمان: عقد والصدر لبني عبد من حمير، حضنان واديان للمربين. أودية منها **حوران كلها لبني مر.** ـ ثم ـ **وادٍ كثير النخل لبني شداد.**

هذه الطريق، كما سبق لنا أن رأينا، تؤدي إلى الساحل اليمني لا إلى الساحل الفلسطيني. والمعارك التي دارت بين يهوذه والرومان لم تقع في فلسطين؛ بل في وادي حوران ـ حورون وجزر وشداد ـ ءشدد. والأمر المؤكد أن هذه الحقيقة لا تنبني على المصادفة اللغوية أو الجغرافية، وإنما على حقيقة أن التاريخ العسكري لروما في هذا الجزء من العالم، وفي عصر أنطيخوس وخلفائه تحديداً، كان ـ بامتياز ـ تاريخ الحملات الحربية على فارس واليمن وسواحل البحر الأحمر، وليس على فلسطين أو بلاد الشام. علماً أن اليمن كانت هدفاً مغرياً وجذاباً بالنسبة للرومان، بسبب ثرواتها الهائلة من البخور واللبان (ثروة العالم القديم وكنوزه) ولأنها كانت تخضع لنفوذ عدوهم التقليدي فارس. أمّا فلسطين وبلاد الشام، فلم تكن تعرف اضطرابات متواصلة وعنيفة وجدّية، تستدعي مثل هذه الحروب؛ بل إن المسرح الصغير لبلاد الشام وفلسطين من المنظور الجغرافي لحملات ضخمة، كتلك التي وصفها السفر، لا يحتمل تواصلاً وعنفاً وزخماً، وإمكانات على المقاومة المستمرة والصمود، وتتحقق فيه انتصارات لامعة على الرومان. وأكثر من ذلك أن التاريخ لا

يعرف أبداً، أي انتصار فلسطيني لامع على الرومان في سلسلة لا تكاد تنقطع من المعارك؟ إن منطق الأحداث يخالف أيّ محاولة لوضعها داخل التاريخ الفلسطيني. هذا الإطار التاريخي ـ الجغرافي المقترح، سوف يسهل (على القرّاء غير المتخصصين) إمكانية تتبّع التوصيف التوراتي للمواضع التي دار فيها القتال.

وهاكم ، أولاً، القائمة التي أعددناها عن النص:

الاسم العبري	الضبط العربي
1: أدم	ـ أدم
2: ء قربتن	ـ القرب
3: بني بين	ـ بني بين
4: يعزير	ـ عزور
5: دي تمه	ـ ذي تمه
6: ظبوت	ـ ظبوة
7: الجليل	ـ الجليل
8: صور	ـ صور
9: صيدا	ـ صيده
10: عرابات	ـ غُرابات
11: بصرة	ـ بُصرة
12: باصر	ـ باصر
13: عليم	ـ علم

14: مقيد	ـ مقيّدة
15: حيلم	ـ حلمه
16: رفون	ـ رفون
17: بيت بسان	ـ بيت بشان
18: كشور	ـ كشور
19: ءرص ـ جنبه	ـ أرض جنب
20: حبرون	ـ حبرون
21: جزر	ـ جُزر
22: بيت زيت	ـ بيت زيت
23: سلامة	ـ سلامة
24: تقوع	ـ قاع
25: الغوص	ـ الغوص
26: أنبطه ـ ء نبطة	ـ أنبطه
27: بني يمرء	ـ بني يمرء ـ بنو يمرء ـ بنو المرء
28: ءيل	ـ الإلّ
29: تمنية	ـ منية
30: بيت بيص	ـ بيض
31: مكماس	ـ الكامس
32: عفرة	ـ عفرة

33: لدة	ـ لذّة
34: رمثيم	ـ الرَّمّة
35: حصور	ـ حضور
36: الزبديون	ـ الزبيديون
37: ء دوره	ـ الدّور
38: سكمه	ـ سقمه
39: عزه	ـ عزة
40: حصر مئيل	ـ حضر ءيل
41: حصن دوق	ـ دوق
42: يمنيه	ـ يمنية

تتضمّن القائمة أعلاه طائفة من المواضع التي سبق لنا البحث عنها وتحديدها ضمن جغرافية اليمن القديم؛ ونحن كما هو واضح، نكتفي بعرض معظم، وليس كل المواضع منعاً للتكرار. إن أي اسم من هذه الأسماء لا وجود له في أرض فلسطين التاريخية على وجه الإطلاق. وهذا أمر غريب ويبعث على الحيرة والتساؤل، إذا ما تقبلنا فرضية أن الأحداث التي يرويها السفر وقعت هناك. وسوف نبدأ من موضع **دوق** ـ رقم ٤١ ـ الذي دفن فيه سمعان قائد جيش يهوذه المكابي وشقيقه حسب قول النص، وكذلك من موضع **كفر سلامة** ـ رقم ٢٣ ـ الذي دارت فيه إحدى أهم المعارك. إن شمال فلسطين المدّعى أنه كان موطن مملكة يهوذا، لا

يعرف ولم يسمع سكانه قديماً ـ بالطبع ـ باسمي هذين المكانين. وإذا كان ثمة ما يؤكد وجود مدفن لملكٍ إسرائيلي مزعوم، فإن لمن المنطقي أن تظل الأرض هناك، محتفظة عنه ببقايا ذكريات من نوعٍ ما، أو حتى مرويات شعبية تحتفظ باسم صاحب القبر. لكن شيئاً من هذا كله لا يبدو موجوداً إلى النهاية، لأن الموضعين ليسا هناك البتة. يصف الهمداني موضع **دوق وكفر سلامة**، ويحدّدهما على النحو التالي (٣٠٣ ـ ٣٠٤):

(محجّة صنعاء إلى مكة إلى طريق **تهامة**: من صنعاء صِلّيت من البون، ثم الموبد ثم عثرّ ثم ـ **وادي ـــ بيض** ثم حلي ثم الجوّ ثم **دوقه**، وهي للعبديين من بقايا جُرهُم. هذه طريق الساحل والمحجّة القديمة ترتفع إلى حلي العليا)

ها هنا **وادي دوقه ـــ دوق على الطريق الساحلي لجنوب غرب الجزيرة العربية قرب وادي بيص ـــ بيض**، تماماً كما في السِفر التوراتي. وللتأكيد على أن القدماء من الجغرافيين العرب كانوا يعرفون هذا الوادي بوصفه مكاناً يمنيّاً، نورد ـ هنا ـ شهادة ياقوت الحموي التالية (ياقوت: ٢: ٥٥١):

(**دوقة: بأرض اليمن لغامد**. وادٍ على طريق الحاج من صنعاء لمن سلكوا تهامة. قال زهير الغامديّ:

أعاذل مِنّا المُصْلِتون خِلالهم

كأنّا وإيّاهم بدوقة لاعب)

أمّا **كفر سلامة** التي التقى فيها جيشا نكانور الروماني ويهوذه المكابي، فهي ذاتها قرية سلامة التي حدّدها الهمداني في قبلة

الطائف شرقاً؛ قائلاً عنها ـ وفي إطار الاعتقاد السائد في عصره ـ أنها (موضع تبقى منه حائط كبير لا يُعرف صاحبه وهو من أبنية العباسيّين). ولذلك أطلق عليه العامة من الناس اسم حائط أم المقتدر؛ وهذا أمر مفهوم، فالعامة في كل مكان وعصر، يسمّون أسماء المواضع التي يجهلون تاريخها، بأسماء لا تزال حاضرة في ذاكراتهم الجمعية. هاكم ما يقوله الهمداني عن بقايا **قرية سلامة** ـ وكفر في العبرية تعني قرية (٢٣٢ ـ ٢٣٣):

(ثم بلد حرام من كنانة وهو وادي **أثمة** وحلي وحلي العليا والسرّين ساحل كنانة والليث ومركوب (...) وفي قبلة الطائف حائط أم المقتدر الذي يدعى **سلامة**)

وقال امرؤ القيس (**صفة**: ٣٤٤) ذاكراً قرية «كفر سلامة» القديمة:

عفا شطب من أهلهِ فعزورُ
فموبولة أن الديار تدور

فجزع محياة كأن لم تقم به
سلامة حولاً كاملاً وقدور

إن وجود أثر في مكان ساحلي قديم لا يُعرف صاحبه أو لمن يجب نسبه، وفي الامتداد نفسه ويدعى سلامة، كما أنه على مقربة من موضع **عزور ـ يعزور** التي تغنى بها امرؤ القيس، وحيث دارت معركة ضارية مع الرومان؛ أمر يتوافق بكل تأكيد، مع تصوراتنا القائلة أن الحروب الرومانية ضد بلاد اليهودية جرت عند ساحل البحر الأحمر، وهي استهدفت كما نرى، إخضاع القبائل المتمرّدة

هناك وليس إخضاع فلسطين. ولنلاحظ أن النص التوراتي يرسم اسم **عزور في صورة يعزور** أي بياء لاصقة كما في الكتابة اليمنية، وهو إلى جوار بقايا قرية سلامة. وما يؤكد ذلك أن النص التوراتي يتحدث عن جماعة يسميها **الزَبْديون** شاركت في المعارك الدائرة. ولا وجود بكل يقين لمثل هذا الاسم في الساحل الفلسطيني. ومع ذلك تزعم القراءة الاستشراقيّة أن هؤلاء هم أنفسهم (**الذين يعيشون في سهل الزبداني بضواحي دمشق العاصمة السورية) وهذا غير معقول**؟ لأن الزبداني السوري مكان بعيد للغاية عن الساحل الفلسطيني؛ بينما نرى أن المنطق الجغرافي يقول: إن **هذه الجماعة تقيم في ساحل زبيد في الامتداد نفسه لساحل الطائف وساحل عثرّ. والزبيديون اسم نسبة من زبيد اليمنية وليس من الزبداني السوري**. وفضلاً عن هذا كله، يشير سفر المكابين إلى **موضع يدعى ألماس. والمقصود به موضع الماس** الذي وصفه الهمداني (**صفة**: ٣٦٥) بقوله:

(**الماس** أكمة سوداء من بلد الهُجن من أرحب)

وفي هذا الإطار؛ فإن لوجود موضع يدعى الماس ضمن مقاطعة أرحب التي اشتهرت بعتاتها (أشرارها ولصوصها ومقاتليها الأشداء) أمر له أهمية قصوى في سياق البرهنة على زيف المطابقة الاستشراقية. يقول السفر التوراتي ما يلي: إن يهوذه المكابي وفي طريقه لمحاربة الرومان، ضرب جماعة من قطّاع الطرق واللصوص **يعرفون بأنهم من بنيّبْين، وهؤلاء حسب وصف الهمداني هم سكان وادي ذي بين الذي تصبّ مياهه في بلد صيد ــ صيدا**، بينما كان الرومان يهاجمون في هذه الأثناء، موضعاً يدعى **صيدا ــ صيده**. وقد تخيّل التوراتيون هذا الهجوم على أنه هجوم

روماني موجّه صوب **صيدا اللبنانية**، وهذا غير معقول جغرافياً، إذ كيف يمكن من الناحية الجغرافية ـ العسكرية، جمع **سهل الزبداني السوري بساحل صيدا اللبناني، وهذين بساحل فلسطين**؟ هاكم وصف الهمداني للمكانين (**صفة**: ١٥٩) ولتمعنوا النظر في اللغز الجغرافي:

(أودية من ظاهر همدان مثل: ذي بَيْنْ وما يسقيهما من ظاهر ـ بلد ـ **الصيد** وما يسقط إليه من مدر وإتوة والخشب (المحقق: الخشب: قبيل ووطن مشهور وهم من عتاة أرحب).

ولنلاحظ وصف محقق الهمداني العلّامة الأكوع، لسكان هذا الوادي بأنهم «عتاة أرحب» أي الرجال الذين يتصفون بالبأس والشدة في بلد أرحب حيث توجد الماس ـ انظر الماس أعلاه ـ؛ كما توجد صيدا ـ صيده التي دارت فيها المعارك. وعلى الأرجح أعطى هذا الوادي اسمه لمنطقة أبين إحدى أكبر محافظات الجنوب اليمني اليوم.

أكذوبة «يهوذا والسامرة»

وإذا ما قمنا بإعادة رواية حروب يهوذه المكابي في الإطار التاريخي ـ الجغرافي المقترح؛ فإن لغز هذه الحروب سوف يكون قابلاً للتفكيك بسهولة. كان **أبولونيوس والياً رومانياً على إقليم السمرا**. وقد هيأ جيشاً عظيماً لتأديب القبائل المتمرّدة في بلاد اليهودية، ومن بينها بقايا قبيلة بني إسرائيل التي تقيم على ساحل البحر الأحمر في ما يعرف تاريخياً بـ(إيلياء). وإيلياء اسم جبل ورد ذكره في التوراة. وليس غريباً أنّ الرومان أطلقوا اسم إيلياء هذه عند البحر الأحمر على اسم القدس العربية؟ لقد نقلوا الاسم بعد

معاركهم ضد يهوذا المكابي إلى فلسطين، ومع تواتر الأنباء عن استعدادات الرومان العسكرية لغزو بلاد اليهودية، تناهت إلى أسماع الملك اليهودي، أنباء تحركات رومانية في **نجد وفي اليمامة**، وبأنّ الرومان جهزوا جيشاً قوياً لمحاربته في قلب العاصمة الدينية أورشليم. ولذا بادر إلى ملاقاتهم في الصحراء، ولتنشبَ إثر ذلك معركة كبرى، حقق فيها أول انتصار لامع على الرومان، **إذ تمكن من سلب سيف أبولونيوس** نفسه. وكان لهذا الانتصار وقع خاص على أسماع **قائد سورية الروماني سارون** الذي فكر في اغتنام الفرصة، والقيام بهجوم مباغت للانتقام من يهوذه المكابي. وهكذا جهز جيشاً من الحاميات السورية وصعد لمهاجمته في البادية، قبل أن يتوغل في قلب الجزيرة العربية، ثم ليزحف نحو المناطق الواقعة في الجنوب الغربي، حيث نشبت معركة أخرى ضارية على ضفاف وادي **حورون ـ حوران (وهي حوران اليمن لا حوران الجنوب السوري والتي ورد ذكرها في شعر امرئ القيس)**. هاتان المعركتان شرّعتا الأبواب أمام سلسلة من الصدامات في نجد والبادية العربية وسواحل البحر الأحمر، استعان فيها الرومان بالجيش المتمركز في بلاد الشام، وبالمرتزقة من القبائل البدوية المنافسة والوثنيّة الكارهة للقبائل اليهودية العربية (ذات الأصول القحطانية ـ اليمنية). ثم كانت هناك الحملة الثالثة الكبرى بقيادة **جورجياس**، وهي الحملة التي بلغت **جبال الأعماس** (عمواس) حيث التحقت به جماعات إسناد من **أرض أدوم**. وكما يلاحظ من هذا السرد؛ **فإن سفر المكابين لا يشير أبداً ـ في هذا المقطع من المعارك ـ إلى وجود تهديد عسكري لأورشليم، كما أنه لا يطلق عليها اسم القدس**، وهو أمر لافت للانتباه؛ فلو كان الرومان يريدون من هذه المعارك الاستيلاء على **أورشليم وهم حكام سورية الجنوبية، فمن غير المنطقي أن يجهزوا كل هذه الجيوش لترسل إلى**

البادية. إن فلسطين التاريخية، إذا ما قبلنا فرضية أن الحروب دارت في المسرح الفلسطيني، تعرف بكل تأكيد موضع **عمّ أوس ــ عمواس** هذا. وقد وجد الجغرافيون المسلمون (ياقوت ــ مثلاً) أن **عمّ أوس ــ عمواس**، هو من المواضع القريبة من الرملة على الطريق إلى القدس العربية. بيد أن وجود مثل هذا الاسم، ليس دليلاً كافياً بحدّ ذاته، للبرهنة على أن المقصود منه المكان نفسه الذي عناه السِفر، لسبب بسيط للغاية هو أن هذا الاسم موجود بمعزلٍ عن أيّة أسماء أخرى وردت في النص. وعلى سبيل المثال فليس هناك إلى جواره أرض تدعى **أدوم**، كما أنه لا يؤدي إلى أي مكان آخر من الأمكنة التي وصفها السفر.

إن الرسم العبري الصحيح للاسم ليس **عمواس** ــ كما في الرسم العربي من الترجمة السائدة للتوراة ــ بل **الأعماس ــ عُماس**، وهو سلسلة جبلية صغيرة تتجمع في أسفلها المياه القادمة من قرية **السدّة ــ ءسدد** وعلى مقربة من **جبل أدم**، أي بالضبط قرب سائر الأماكن التي يصفها السِفر التوراتي، ويشير إلى أنها كانت مسرحاً للقتال مع الرومان. هاكم التوصيف الدقيق من الهمداني ومحققه **لجبال الأعماس** ــ وهذا هو الضبط الصحيح. يقول الهمداني (**صفة**: ١٩٧) في وصف مخلاف السحول الممتدّ من عقبة الذهوب في مدينة إب جنوباً وإلى البادية شمالاً (وقد تحول اسم هذا المخلاف تالياً إلى اسم مخلاف الكلاع حيث يشتهر سكانه بزيادة النون في نطق الأسماء) ما يلي:

(مخلاف السحول: والمساكن من هذا المخلاف جبل بَعْدان **وجبل أدم**، وسليّة وأرياب الذي مدحه الأعشى)

ويضيف الهمداني ومحققه (**صفة**: ١٤٦ ـ وانظر الهامش) ما يلي:

> **وادي أبين** وهو مما يلي لحج ومآتيه من شراد وبنا، أرض رُعين (المحقق: وادي بنا له فرعان، يشكل سيلاً عظيماً من الروافد التي تمدّه وتسمّى باسم خاص. وتلتقي مع سيل الدلاني في أعلى قرية **السدّة** ويرفدها ما جاء من سائلة حورة التي تتألف من **جبال الأعماس**.)

في هذين المقتطفين الرائعين، لدينا سلسلة جبال صغيرة في مخلاف السحول تدعى **الأعماس، ترتبط بجبل أدم في وحدة جغرافية متكاملة تضم أبين والسدة**؛ وهذا ما يجعل من رواية سِفر المكابين عن المعارك ضد الرومان، قابلة تلقائياً لأن توضع في موضعها الصحيح من التاريخ اليمني، بينما يستحيل وضعها في التاريخ الفلسطيني القديم. ولذلك؛ فإنّ وجود اسم واحد مشابه للاسم التوراتي، لا يمكن أن يكون دليلاً قاطعاً. ومن المحتمل أن الاسم **الأعماس ـ عمواس** (عم ـ أوس) أو **عموس**، انتقل مع القبائل العربية اليهودية المهاجرة ـ في الأصل من اليمن ـ إلى فلسطين في السياق ذاته، لانتقال سلسلة من أسماء المواضع اليمنية إلى بلاد الشام القديمة، وذلك مع بدء الهجرات الكبرى والانزياح المتتالي للقبائل العربية ـ اليمنية عن أوطانها بفعل جملة من الأسباب التاريخية، من بينها الحروب مع الآشوريين واليونانيين والرومان والبيزنطيين. كانت أوامر **الملك الروماني ليسياس** واضحة وصريحة بعد هزائم قادته في البادية العربية: السير نحو قلب القبائل العربية اليهودية وتدميره، أي الزحف صوب **أورشليم اليبوسيّة ـ اليمنية القديمة**. وكنا قد أشرنا إلى أن بيت بوس اليمنية هي أورشليم

التوراة. وبكل تأكيد؛ فإن قاصد بيت بوس **من مخلاف خولان وأرض أدوم، سوف يبلغها بسهولة، في حين أن من المستحيل العثور على الأعماس أو عمواس في أرض أدوم من أجل الوصول إلى القدس الفلسطينيّة**. ولنتذكر هنا أن هدف الحملة المباشر، هو القضاء على القبائل المتمرّدة في عقر دارها، **ومهاجمة مراكزها الدينية. وفي هذا الوقت كانت روما وثنية، بينما كانت القبائل العربية اليهودية في اليمن والجزيرة العربية تدين بدين جديد وتوحيدي**. لقد كانت أورشليم هي الهدف الذي سعى إليه الآشوريون في حملاتهم العسكرية من قبل، وها هي تصبح من جديد مع الرومان هدفاً من بين أهداف كبرى في صراع ديني ـ سياسيّ. وهذا مغزى قول السِفر: أن **القوات الرومانية وصلت إلى أدوم ثم خيّمت في بيت صور في طريقها إلى أورشليم**. فهل هناك **أدوم وصور في الطريق إلى القدس؟ وهل يصبح أمراً غير منطقي ـ أن نرفض المزاعم التوراتية القائلة أن أورشليم هي القدس؟**

وإذا ما افترضنا أن الأحداث وقعت في فلسطين، فكيف يمكن التوفيق بين إشارات ومقاصد الجملة الآنفة: **إذ كيف يصلون إلى أدوم في فلسطين ثم يعسكرون في صور اللبنانية، إذا ما كان هدفهم تدمير أورشليم** (المزعوم أنها القدس العربية)؟

معركة كفر سلامة والطريق إلى حصار أورشليم الرومانية

في أعقاب **معركة كفر سلامة** (في قبلة الطائف على الساحل) نحو العام ١٦٠ ق.م، وبعد هزيمة الحملة الرومانية بقيادة نكانور، جرت ملاحقة فلول الرومانيين حتى **جزر** قرب ردمان اليمنية، ومشارف **وادي حوران** (وليس حوران السورية). وفي هذه المعركة

قطع رأس نكانور نفسه وأخذت أسلابه. ومع ذلك وبالرغم من هذه الأحداث، بادر يهوذه المكابي إلى الاتصال بالرومان، وأرسل موفدين منه إلى روما هما **أولمبس بن يوحنا، وياسون بن آليعزر،** بهدف إقناعها بجدوى التحالف مع القبائل اليهودية العربية. وأكثر من ذلك، طرح الموفدان إمكانية أن تقوم مشيخة ـ مخلاف بلاد اليهودية في اليمن، بدور عسكري في حروب روما. بيد أن الآمال بعقد هذا الحلف سرعان ما تبدّدت مع أول حملة للملك الروماني في نجد اليمن لبسط النفوذ على وادي **الجليل**. وعندما زحفت الجيوش الرومانية للاستيلاء أولاً على **جبال الزيت ـ زيتيم،** نشبت معركة ضارية كان مسرحها يبدأ في **بئرة ـ بئروت،** وينتهي في وادي حصور ـ حضور. وفي هذه السلسلة من المعارك الدامية سقط يهوذه المكابي قتيلاً. لكن، بعد مقتله أصبح شقيقه يوناتان ملكاً على بلاد اليهودية. يقول النص التوراتي: إن يوناتان قرّر الانتقام لدم أخيه **يوحنا الذي قتله بنو يمرء في حوران،** عندما أرسل لطلب العون من القبائل في مواجهة القوات الرومانية، وأنه في سياق هذا الانتقام، ضربهم بقسوة في **أنبطه ـ أنبطه** وهي من أماكن الوحش بحسب وصف الهمداني (أي حيث يعيش عتاة البشر مع الحيوانات الكاسرة). وبذلك أصبحت مهمته المباشرة ذات طبيعة مزدوجة: إخضاع القبائل التي لا تعترف بسلطته، ومواجهة التحدّيات الرومانية. ولذلك وفور تنفيذه لعملية انتقام مدبرة قام بها ضد بني **يمرء، حيث تمكن من الإيقاع بهم في كمين محكم أثناء عرس في أنبطة،** تفرغ لتحصين مواضعه في **تمنية ـ منيه وفرعتون .. فرعة وثفون ـ ثفن** وسواها. والهمداني يصف هذه المواضع في نصه بصورة دقيقة للغاية. هاكم ما يقوله عن موطن بني **يمرء ـ المراء وأوديتهم** (صفة: ٢٦٤):

> ومَنْ أخذ طريق **وادي الثفن** من الفلج إلى **اليمامة**، أخذَ أسافل أودية جعدة. **والثفن وادٍ رغّاب كثير النخل كثير الحصون** فإنْ أحب شرب ـ من وادي ـ دلاميس ، وإنْ أحب شربَ ـ من وادي ـ **المراء** ومن قبلة الفلج فرع وادي أكمة ثم الفرعة.

ولنلاحظ التناظر بين النصوص؛ فالنص التوراتي يتحدث عن **حصون أقامها يوناتان في ثفون ـ ثفن وفرعتون ـ فرعة**؛ بينما يتحدث نص **الهمداني عن حصون كثيرة في هذين الواديين.**

حصار أورشليم وتهديم المعبد (بيت الرّب)

في العام ١٥٩ ق.م (وبعد نحو مئة عام على عبور يوليوس قيصر روما لنهر الراين الألماني) حاصر الرومان **أورشليم** مرة أخرى إثر حملة قادها ضابط روماني كبير يدعى **بكيديس**، كان قد عسكر خلال الحملة الجديدة في **وادي بيص ـ بيض على الساحل**. لقد سعت القراءة الاستشراقية، عبثاً إلى مطابقة اسم قرية **بصا** الفلسطينية الصغيرة قرب **بيت لحم، مع اسم وادي بيص ـ بيض هذا. بيد أن سياق الأحداث يشير إلى وادٍ كبير، أقام فيه الجيش الروماني معسكره وليس إلى قرية صغيرة، بعيدة كل البعد عن القدس العربية**. إن **وادي بيص** هذا ليس سوى **وادي بيض** (بيص ـ بيصي في العبرية تعني: بيض). والدليل على ذلك أن الرواية التوراتية تقول ما يلي: إن الحملة الرومانية تراجعت نحو موضع يدعى **مكماس** بعد فشل الضابط الروماني بكيديس في مهمته الحربية. وبالطبع ليس ثمة من موضع يدعى **مكماس على**

الطريق إلى وادي بيض سوى موضع **الكامس** الشهير في الشعر العربي. يرسم الاسم في العبرية في صورة **كر ــ كميش**. وكلمة (كر) العبرية تعني (مرج) أي مرج كامس. ومع حلول العام ١٤٧ ق.م، جهّز الرومان حملة أخرى بقيادة أبولينوس لتأديب القبائل المتمرّدة (وأبولينوس ــ من أبولو ــ اسم الإله العربي والإغريقي ــ هذا هو ابن والي السامرة الذي قهره يهوذه المكابي وهو يحمل اسم والده) وقد عسكر بقواته في منطقة جديدة تسمى في النص العبري **يمنيه ــ منيه**. وهذا الموضع يرسم في الطبعة العربية من التوراة خطأً في صورة يمنيا.

في بداية هذه الحقبة من الحروب وخلال إحدى المعارك الدامية، سقطت **يفو ــ يفا** في يد **يوناتان** (ترسم يفو خطأً في الطبعة العربية في صورة: يافا كجزء من التضليل والإيحاء بأن الأحداث تدور في فلسطين فيما المقصود منها يفا). وفي وقت لاحق، ومع صعود أنطيخوس السادس ١٤٥ ــ ١٤٢ ق.م والمعروف باسم: أنطيخوس الصغير، جرت أول محاولة جدّية لعقد معاهدة صلح، تمنح القبائل المتمرّدة بموجبه، حق السيادة على ثلاثة أو أربعة مواضع هي (ء **فرمة**، **لدة ــ لذة** ــ وهذه جرى تخيلها على أنها **اللد** الفلسطينية، ثم **رمتيم**، وربما أضيفت إليها في وقت لاحق ء **قربتن** كما ترى القراءة الاستشراقية من دون إسناد أو دليل، بينما نرى أنها **يُفاء** التي سقطت في يد يوناتان وهي مسيل مياه وأرض خصبة). إن فلسطين التاريخية لا تعرف أيّ موضع من هذه المواضع، كما أن علماء الآثار لم يجدوا أي أثر دالّ على وجود أماكن ومواضع بهذه الأسماء في فلسطين، بينما يعطينا الهمداني الأسماء ذاتها وفي الفضاء الجغرافي ذاته. بيد أن محاولة التوصل إلى معاهدة صلح حقيقية، سرعان ما تعرضت للفشل مع تعاظم

مخاوف الرومان من نفوذ يوناتان بين سائر القبائل العربية في النجد. ولذلك جهزوا حملة أخرى لإلحاق الهزيمة به. لكن، واستعداداً لهذه التطورات، أقام يوناتان مخيّماته قرب وادي **خناصر** (جناسر في الطبعة العربية) قبل أن يتجه إلى وادي **حصور ــ حضور**. ووادي **خناصر هذا هو مسيل مياه على مقربة من مخلاف حضور**، تماماً كما في وصف السفر. إليكم هذه المقاربة بين النصين:

سفر المكابين: (النص العربي: ١١: ٦٤ : ١٢: ١١ لتسهيل عودة القراء إليه)	الهمداني (صفة: ٢٠٩ ــ ٢١٠)
وخيمّ يوناتان مع جيشه عند **مياه خناصر مناهل** لعسان **ذو حضور**، ثم إلى **حضور فسافلة حضور**	والأحصّ وهو **منهل** الظّهار ــ ثم ــ وصلوا فجراً إلى **أسافل حضور**

تكشف هذه المقاربة عن الحقيقة المذهلة التالية: أن المعركة التي خاضها يوناتان ــ يونتن ضد القوات الرومانية، وقعت إلى الغرب من صنعاء، وليس في فلسطين التي لا تعرف أيّ موضع أو مسيل مياه ــ مناهل مياه ــ يدعى مياه خناصر، ولا مسقط مياه يمكن تسميته أسفل حضور ــ حصور. وهذا هو اسم الوادي الذي تسجله التوراة في نصوص متفرقة، كما تعيد التذكير في سفر المكابين. وبالطبع، فليس من المنطق في شيء القول أن وجود الاسم نفسه وبصفته هذه هو مجرد توافق لغوي أو جغرافي محض. وفي هذه المعركة ــ وبحسب النص العبري ــ زحف يوناتان برجاله على القوات الرومانية وكسرها، ثم طارد العدوّ إلى

قدش. إن أحداً لا يعرف قدس هذه قرب مياه خناصر وأسفل حضور في فلسطين؛ بينما يمكن ببساطة تصوّر مسرح القتال الذي يبدأ من غرب صنعاء حتى جنوب تعزّ، حيث جبل قدس وأسفل وادي حضور ووادي خناصر. وفي أعقاب هذا الصدام الدامي، قرر يوناتان في إطار الاستراتيجية التقليدية ذاتها والتي لطالما اتبعتها القبائل على اختلاف دياناتها وظروفها، **إرسال موفدين إلى روما من أجل إبرام وتجديد الاتفاقات المعقودة بين القبائل العربية والإمبراطورية.** عنى هذا، من وجهة نظر سياسية، أن القبائل المتمرّدة على الرومان، كانت ـ وفي ظروف الحرب القاسية ـ مستعدّة لانتهاج خط سلمي إذا ما تمّت الاستجابة إلى بعض مطالبها. وهذه هي الاستراتيجية التقليدية التي تنتهجها معظم القبائل مع القوى الكبرى؛ فهي مستعدة للمضي معها شوطاً أبعد، سلماً أو حرباً، ولكن في سياق الاحتكام إلى مستوى الاستجابة لمتطلباتها ومصالحها وميولها الاستقلالية. في النهاية وبعد سلسلة من الحروب والمعارك مع الرومان، وقع يوناتان ـ يونتن في قبضة القوات الرومانية في معركة **وادي بسيان ـ بشيان** نتيجة لخدعة دبّرها تريفون القائد الروماني الطموح؛ ولتبدأ منذئذٍ، حقبة جديدة يصبح فيها شقيقه سمعان قائداً وحيداً من غير منافس، ثم ـ تالياً ـ **ملكاً وكبيراً للكهنة في بلاد اليهودية في سرو حِمْيَر.**

لكن، بين أعوام ١٤٣ ـ ١٣٤ ق.م، وقبيل صعود سمعان إلى العرش بقليل، عادت القوات الرومانية بقيادة تريفون إلى سياسة الحملات الحربية المتواصلة، لإرغام خليفة الملك الأسير على إظهار مزيدٍ من الخضوع لمشيئة الإمبراطورية. ولمواجهة هذا الوضع وربما تحدّيه بصورة مباشرة وفورية، اتجه سمعان بقواته في شتاء عام ١٤٣ ق.م إلى **حديد ـ حديد** في العبرية (واليوم تسمى الحديدة

في شمال اليمن) وهي **منطقة تقطنها قبائل عربية من بني حديد** ـ وهذه غير حدد في اليمامة التي سبق الكلام عنها ـ؛ بينما كان تريفون يستدير بقواته **من ء دوره ليمضي في سكمه ـ سقمه، بسبب كثافة الثلوج التي تساقطت على الطرق الجبلية**. وفي هذه المواجهة القاسية بين المتحاربين، قتل الملك الأسير يوناتان ـ يونتن الذي جيء به إلى مسرح الحرب بقصد المساومة. وبعد مفاوضات معقدة، تمكن شقيقه سمعان من الحصول على الجثة وعلى حق دفنه في مسقط رأسه **مِدان**. وبكل يقين؛ فإن فلسطين التاريخية لا تعرف أيّ موضع من المواضع الآنفة، بينما يصف لنا الهمداني ـ وعلى العكس من كل مزاعم التوراتيين والاستشراقيين ـ سائر هذه المواضع على الطرق الجبلية من جرش اليمن. ولنتذكر في هذا السياق أبيات امرئ القيس عن جبل أبان عند وادي الرّمة ـ رمتيم الذي تغطيه الثلوج ـ انظر ما كتبناه عن أبان ـ قال:

كـأنَّ أبـانـاً في تـفـانـين وبـلـهِ كـبـيـر أنـاسٍ في بـجـادٍ مـزَّمـلِ

وهذا وصف رائع ونادر للثلوج وهي تسقط فوق قمة جبل أبان عند وادي الرمة، علماً أنه يدعى **أبان الأبيض لكثافة الثلوج** التي تغطيه، بحيث يبدو مثل رجل كهل مهيب يتدثّر بثوب بدوي مخطط هو البجاد (وفي العبرية بجاد بالمعنى نفسه). يقول الهمداني في وصف مواضع القبائل القاطنة بين **نجران والجوف إلى جرش** (صفة: ٢٣٧ ـ ٢٣١):

(غرب، والحضارة، والعشتان، والبردان، **والبردان بئر** بتبالة وبالعرض من نجران، **وسقم**، والذي يسكن هذه البلاد من **قبائل** نهد، وحرام. وأول الأودية بين نجران والجوف قضيب **واليتمة** ـ ثم

> ـ جُرش: وهي كورة نجد العليا من ديار عنس من أشراف حمير. وجرش في قاع ولها أشراف غربية بعيدة تنحدر منها مياهها. **والدّارة** والفتيحا **وطبب هذه أودية عسير.** والذي يصالي جنب من ديار عنز الرفيد **والغوص وتمنيّة** والغوص يسكنه **بنو حديد وتمنيّة يسكنها بنو مالك والدّارة** والفتيحا وتسمّى هذه أرض طود)

ها هنا وفي جبال نجران التي تمتد إلى جُرَش، المواضع ذاتها الواردة في نص السِفر وهي على التوالي: **سقم ــ سقمه** التي اتجه صوبها الجيش الروماني بعدما حاصرته الثلوج، **والدّارة ـ ءدورة** التي سار إليها من النجد ــ انظر ء دوره في القائمة ــ. وها هنا منازل القبيلة العربية **بنو حديد ـ حديد،** تماماً كما في النص التوراتي. وفضلاً عن ذلك، هناك المواضع ذاتها الواردة في السفر (انظر القائمة) مثل **تمنية والغوص** (الغياض كما في الترجمة العربية) **والميتمة** ــ دي تمه (أو ذو تمه وهذا تركيب لغوي يمني خالص). وإذا ما سار المرء على خطى الرومان بين هذه السلسلة من الوديان والجبال ومسايل المياه، متجهاً صوب الطائف؛ فإنّه سوف يصل إلى البحر، تماماً كما في وصف السِفر لسير العمليات العسكرية. وبالطبع، فلن تقوده خطاه في إثرهم إلى فلسطين، مهما فعل وتمنى. ثم يختتم **السفر روايته للحملات الرومانية على بلاد اليهودية القديمة بقصة مصرع سمعان ودفنه في دوقه ــ دوق.**

أين ظهرت مملكة «بلاد اليهودية القديمة»؟

إذا ما عدنا إلى بعض المواضع الواردة في السفر، ومنها الموضع

الذي قيل إن القبائل فيه، كانت مستعدة لمساعدة يهوذه المكابي في حربه ضد الرومان، أي إلى **ظبوت ــ ظبوة**؛ فسوف نراها في المكان ذاته لسائر الأماكن الواردة في النص التوراتي. يقول الهمداني عن ظبوة (**صفة:** ١٥٥ ــ ١٥٦):

(في وصف الجوف اليمني: ومساقي الخارد من فروع مختلفة فأولها من مخلاف خولان في شرقي صنعاء فيصبّ إليه غيمان وما أقبل من **ظبوة**. وما أقبل من عدّ ورد ومن أشراف نقيل السود **فبيت بوس**)

وكنا رأينا أن **المقصود من أورشليم التوراة (بيت بوس)**. وها هنا القبائل **القاطنة قرب بيت بوس في وادي ظبوة** ــ العبرية تستعيض عن الضاد بالظاء ــ. أما كشفر ــ **كشور** ــ في العبرية الحديثة يلفظ الواو فاء، فليست سوى وادي كشور اليمني نفسه. (**صفة:** ١٦٢ ــ ١٦٣):

(ثم **وادي نجران** وفروعه من ثلاثة مواضع من خولان ومن بلد شاكر والحناجر. ويلقاها سيل عكوان من شرقي دماج فيضم إلى العشة ثم يلقاها **وادي كشور** فسيل جدرة)

هذه هي أحداث سفر المكابين التي جرى تخيّلها في فلسطين على الرغم من انعدام أيّ عنصر تاريخي موثوق به. وعلى العكس من ذلك، ثمة كل ما يلزم من العناصر التاريخية والثقافية التي تؤيد وبقوة، نظريتنا عن وقوع الأحداث في اليمن القديم. إن **إعادة بناء الرواية التاريخية التي سجلتها التوراة على أساسٍ جديد، تقطع**

مع التخييل الكولونيالي، سيكون ممكناً ومطلوباً في الآن ذاته وفقط، عندما نقرأ الأحداث في سياق طموح الإمبراطورية الرومانية لبسط نفوذها على امتداد سواحل البحر الأحمر. إن هذا وحده ما يفسر المعنى الذي تنطوي عليه عبارة الهمداني، نقلاً عن بطليموس القلوذي، الجغرافي اليوناني والقائلة (صفة: ٧٣):

> وأمّا سائر أجزاء هذا الربع الذي يلي وسط جميع الأرض المسكونة وما يقع منها، مثل: **أرض سورية وأرض فلسطين وبلاد اليهودية العتيقة من إيلياء**، وتسمّى بالعبرانية **يرشلم وتعرّبها العرب فتقول أوراشلم**.

إن الحدود المفهومية التي يقيمها الهمداني وبطليموس على حدّ سواء، بين **أرض سورية (وسط بلاد الشام) وجنوبها أرض فلسطين** من جهة، وبين **بلاد اليهودية العتيقة من إيلياء والتي كانت تعرف ــ قديماً ــ بـ**(يروشليم) يجب أن تكون متضمنة لمعنىً ما، وإلا فما هو مبرر تمييزهما بين هذه البلدان؟ هذا المعنى من وجهة نظرنا، يتمثل هنا: إن **بلاد اليهودية العتيقة التي دارت فيها أحداث سفر المكابين، ليست أرض فلسطين، كما أنها ليست أرض سورية ــ بلاد الشام؛ بل مكان آخر** عرف بهذا الاسم. وبكل تأكيد؛ فإن هذا المكان الآخر الذي تمّ تمييزه، **كان يعرف عند الجغرافيين اليونانيين باسم** (يروشليم). ولو كانت **يروشليم هذه هي ذاتها مدينة القدس العربية** (أو قدس التوراة) في **عصر بطليموس اليوناني، فمن غير المنطقي أن يميزها عن فلسطين**. بل لا مبرر لتمييزها أصلاً، ولتوجّب على بطليموس وهو

الجغرافي الحاذق أن يقول: **ويروشليم في فلسطين**. بيد أن هذا سيبدو أمراً مخالفاً لمنطق الجغرافيا في عصره؛ فهو يعرف أنها لم تكن في فلسطين، وإنما **في بلاد اليهودية العتيقة في سرو حمير (الجنوب الغربي من الجزيرة العربية) وهي عرفت عند الجغرافيين العرب القدماء باسم إيلياء**، وتقع ضمن نطاق الجغرافيا التي يسميها بطليموس **أجزاء الربع** (الذي يلي وسط جميع الأرض المسكونة). وبكل يقين لم يكن اسم هذه البلاد القدس.

بعد كل هذه الحروب المدمّرة اندثرت بلاد اليهودية العتيقة من إيلياء (وعاصمتها الدينية القديمة أورشليم العربية ـ اليمنية وهي بيت يبوس) واختفت من مسرح التاريخ. لقد أرغمت الحروب المتواصلة، القبائل العربية العاربة وبعضها كان على دين اليهودية ثم النصرانية على الهجرة نحو حاضرة الإمبراطورية الرومانية آنذاك: بلاد الشام. **والتاريخ المقبول من وجهة نظرنا، لبداية تدفق القبائل العربية العاربة بما فيها بقايا قبيلة بني إسرائيل من يهود اليمن وسواحل البحر الأحمر وتهامة ونجد واليمامة، نحو جنوب الشام (فلسطين) يجب أن يكون في حدود ١٣٠ ق.م وليس قبل ذلك**، لأن المعارك كانت لا تزال مستمرة وبقوة زخم مدهشة حتى هذا الوقت، بين القبائل العربية اليهودية بقيادة يهوذا المكابي، والقوات الرومانية الغازية. **وفي حدود هذا التاريخ كانت أورشليم عاصمة بلاد اليهودية الدينية في سرو حمير، ولم يكن اسمها القدس قط**. وابتداءً من هذا التاريخ أو بعده بقليل، تدفقت وعلى شكل موجات متعاقبة، وتحت ضغط الحروب والحملات العسكرية المدمرة؛ جماعات وقبائل وشعوب منهكة، تقلّصت وإلى حدّ بعيد إمكاناتها القتالية والحربية وتقلصت قدرتها على مواصلة التمرّد، لتستقرّ في بلاد الشام والعراق وسواها من البلدان، **ثم لتستعيد**

ذكرياتها في صورة أسماء قديمة للمواضع التي تركتها مرغمة. وبالتلازم مع هذه الهجرات الكبيرة، ظهرت في فلسطين أولى التجمعات السكنية للقبائل اليهودية اليمنية، أي أن القبائل هاجرت في النهاية، إلى «حواضر» الإمبراطورية الرومانية، خصمها اللدود الذي حاربته وتصالحت معه مراراً وتكراراً. إن **رواية ابن العبري المقتضبة للغاية، لهذه الأحداث (تاريخ مختصر الدول**: ط، بيروت ـ بدون تاريخ نشر) ولكن الموازية مع ذلك، تنبني في جزء منها على مصادر عدّة من بينها الرواية التوراتية الواردة في سفر المكابين. ولذا يمكنها أن تقدم دعماً للاتجاه الذي تسير فيه نظريتنا عن المسرح الحقيقي لهذه الحروب في اليمامة ونجد اليمن.

ولد ابن العبري في العام ١٢٢٦م، وعاصر الأحداث الدامية في بغداد، وفاوض ـ بنفسه ـ هولاكو بعد سقوط بغداد عام ١٢٥٨م، من أجل الإبقاء على حياة رعايا الكنيسة في أنطاكية. يقول ابن العبري في كتابه ما يلي: إن **بطليموس أفيفانوس وبعد الانتصار في مصر، جهز حملتين حربيتين سارتا نحو بلاد الشام و«بلاد اليهودية» لإخضاعهما**. ويضيف (**تاريخ**: ـ مصدر مذكور ٦١) ما يلي:

> وملك بعده أنطيخوس أوفاطور، سنتين، واضطهدَ اليهود اضطهاداً شديداً. ووليَ أمرَ اليهود **يهوذا المقبي**، وجمع بين **الملك والكهنوت، ونفى نواب أنطيخوس من «أرض يهوذا»** وصار اليهود يحاربون ملوك الروم.

يشير هذا النص إلى اسم **يهوذه المكابي** في صورة **يهوذا المقبي** الذي جمع بين كونه كاهناً أعلى وملكاً، كما يشير إلى قيامه

بطرد نواب الإمبراطورية (في اليمامة ونجد اليمن وما يسمّى إقليم السمرا ويفاء ورمتئيم وسواها). والأهم من ذلك أن ابن العبري يشير إلى **حملتين، سارت إحداهما إلى بلاد اليهودية والأخرى إلى بلاد الشام**. وهذا يعني أن ابن العبري يميز تمييزاً جغرافياً دقيقاً وصحيحاً بين بلاد الشام وبلاد اليهودية. إن إقليم «بلاد» **السمرا** الذي قرئ في صورة **السامرة لا** يقع في شمال فلسطين وذلك طبقاً للرواية التوراتية؛ بل في شمال اليمن حيث دارت المعارك ضد الولاة الرومان في قلبه، وفي أطرافه عند موضع **الغرابات ــ عرابات** في التوراة. وبالطبع؛ فإن السامرة (الضفة الغربية من فلسطين) لا تعرف هذا الاسم، بينما نجد إقليم السمرا العربي ـ اليمني، وهو يضمّ الغرابات وديار هوذة نفسه. هاكم ما يقوله الهمداني (صفة: ٢٥٢ ـ ٢٥٣):

> ثم تقطع بطن قَوّ، ثم **السمراء وهو أرض سهب**، ثم تأخذ في الدهناء وهي هناك مسيرة يومين. ومن عن يمين ذلك **الغرَابات** ثم تسير في السهباء ثم تقطع جبيلاً قريباً له ثم الروضة ودار عجل **وديار هوذة** ـ بن علي السحيمي الحنفي ـ **وهي أول اليمامة**. ثم من أسفل ذلك القرى من اليمامة والقنع، وهذه **اليمامة حصون متفرقة** ونخل ورياض.

هذا هو إقليم ـ بلاد ـ السمرا في الفضاء الجغرافي ذاته للمعارك التي وصفها السفر، وها هنا اليمامة ـ واليوم هي الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ـ والتي دارت فيها الحروب ضد الرومان ــ وها هنا **ديار الحنفيين** (الموحّدين الأوائل في الجزيرة

العربية) الذين تسمّى آخر ملوكهم باسم **يهوذة ــ هوده**، تيمناً باسم **الملك العربي اليهودي الذي قاتل الرومان يهوذه المكابي، وكان قد وضع التاج على رأسه حين ظهر الإسلام فأبى أن يسلم.** لأجل ذلك كله، يتعين ـ اليوم ـ أن نشطب من التاريخ الفلسطيني عصراً بأكمله نسب إلى فلسطين خطأً؛ بل وأن نشطب كل ما له صلة بحروب يهوذه المكابي من تاريخ بني إسرائيل في فلسطين الخيالية، وأن نعيد وضعه بكل أمانة ضمن تاريخ اليمن والجزيرة العربية. ولكل ذلك أيضاً، **فالقدس العربية ــ الإسلامية هي قدسنا، ليست ولم تكن أورشليم التوراة.**

المصادر والمراجع

ابن الكلبي، أبو منذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ـ المعروف بابن الكلبي. كتاب (**الأصنام**). تحقيق: أحمد زكي. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

ابن العبري. **تاريخ مختصر الدول**. بيروت، بدون تاريخ نشر.

ابن منظور. **لسان العرب**. بيروت، دار صادر، ١٩٩٤.

قوجمان. **القاموس العبري ـ العربي**. دار الجيل (مكتبة المحتسب) بيروت، عمان، ١٩٧٠.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني. (**صفة جزيرة العرب**) تحقيق العلاّمة محمد بن علي الأكوع ـ **سلسلة**

خزانة التراث. دار الآفاق التابعة لدائرة الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩.

التوراة. **الكتاب المقدس** ـ النصّ العبري (تورة ـ نبئيم ـ كتوبيم ـ بعبريتو ـ ءنكليت THE SOCIETY FOR DISTRUTING HEBREW SCRIPTURES 1Rectory Lane. Edgwarte. Middles H A87LF ENGLAND U.K).

الربيعي، فاضل. **فلسطين المتخيّلة: أرض التوراة في اليمن**. دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٨. (مجلدان).

المؤلف

ـ مفكر وكاتب عراقي، مقيم في هولندا.

ـ ولد في بغداد ١٩٥٢.

ـ باحث في المركز العراقي للدراسات الاستراتيجية ـ عمان.

ـ خبير في مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت.

ـ متخصص في الميثولوجيا والدراسات الأنثروبولوجية الحديثة.

ـ عضو اتحاد الأدباء العراقيين ونقابة الصحافيين العراقيين منذ مطلع السبعينيات، واتحاد الكتاب الهولنديين منذ عام ١٩٩٦.

ـ شارك في مؤتمرات أدبية وفكرية عربية وعالمية منذ عام ١٩٧٤.

ـ فاز مؤلفه (**أبطال بلا تاريخ: الميثولوجيا الإغريقية والأسطورة العربية**) بالجائزة الأولى للإبداع الثقافي من مؤسسة الشاعر السعودي الراحل ناصر باشراحيل (القاهرة ٢٠٠٦ كأفضل كتاب

في الدراسات الأنثروبولوجية ـ الإنسانية).

ـ حاصل على درع الرواد والمبدعين العرب من مؤسسات الجامعة العربية وذلك بتسليمه درع الرواد والمبدعين عام ٢٠٠٨.

ـ في عام ٢٠٠٥ نشر ترجمة جديدة عن النص العبري من التوراة لقصيدة (نشيد الإنشاد) في إطار اهتمامه الدراسي بالكتاب المقدس من منظور نقدي جديد.

ـ له مؤلفات كثيرة في الأدب والتاريخ الاجتماعي والسياسي العراقي والعربي والأنثروبولوجيا.

منها:

ـ **الشيطان والعرش (رحلة النبي سليمان إلى اليمن)**، شركة رياض الريس للنشر، بيروت، ١٩٩٦.

ـ **إرم ذات العماد: البحث عن الجنة** ـ شركة رياض الريس للنشر، بيروت، ١٩٩٩.

ـ **كبش المحرقة: نموذج مجتمع القوميين العرب** (طبعتان): شركة رياض الريس للنشر، بيروت، ٢٠٠٠.

ـ **شقيقات قريش (الأنساب والطعام في الموروث العربي)** شركة رياض الريس للنشر، بيروت، ٢٠٠١.

ـ **أبطال بلا تاريخ: الميثولوجيا الإغريقية والأسطورة العربية** (طبعتان) دار قدمُس للنشر، دمشق ٢٠٠٣، الفرقد ـ دمشق ٢٠٠٥.

ـ **قصة حب في أورشليم (غرام النبي سليمان بالإلهة العربية سلمى)** دار الفرقد للنشر، دمشق ٢٠٠٥.

- **الجماهيريات العنيفة ونهاية الدولة الكاريزمية** ـ دمشق، دار الأهالي ٢٠٠٥.
- **الخوذة والعمامة: موقف المرجعيات الدينية من الاحتلال الأميركي للعراق** ـ دمشق، دار الفرقد ٢٠٠٦.
- **ما بعد الاستشراق: الغزو الأميركي للعراق وعودة الكولنياليات البيضاء** ـ بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٧.
- **الأسطورة والسياسة** (بالاشتراك مع تركي علي الربيعو) ـ دمشق، دار الفكر ٢٠٠٧.
- **فلسطين المتُخيّلة: أرض التوراة في اليمن القديم** (مجلدان) دمشق ـ دار الفكر ٢٠٠٨.
- **يوسف والبئر: أسطورة الوقوع في غرام الضيف**، شركة رياض الريس للنشر، بيروت، ٢٠٠٨.
- **المسيح العربي**: شركة رياض الريس للنشر، بيروت، ٢٠٠٨.
- **العسل والدم ـ من عنف الدولة على دولة العنف**، دار الفرقد، دمشق ٢٠٠٨.
- **من مجتمع القهوة إلى مجتمع الشاي ـ دولة الكانتون القبلي**، دمشق، مركز الغد، ٢٠٠٩.

فهرس الأعلام

هـ

ي

فرس الأماكن

أ

ب

ت

ج

ح

ي